إنتهاك النزعة الإنسانية للإنسان

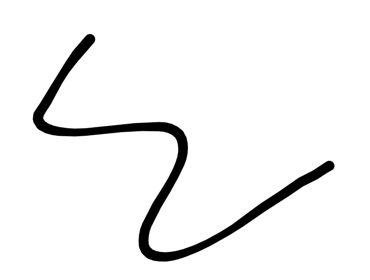
سلطان العميري

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا جزء مستخرج من كتاب للدكتور سلطان العميري ، يتحدث فيه عن إنتهاك النزعة الإنسانية و الداروني‍ة للإنسان لا كما تدعي أنها ترتقي به.

فهرس الموضوعات



نزعة «الإنسانية المستغنية»

مفهوم النزعة «الإنسانية المستغنية»:

يطلق مصطلح الإنسانية على معانٍ متعددة ومقاصد مختلفة؛ وتسمَّت به طوائف مختلفة في اتجاهاتها الفلسفية والدينية والمعرفية، ونتيجة لذلك حكم بعض الدارسين على هذا المصطلح بالغموض والاضطراب[١].

ولأجل الخروج من مأزق الغموض والاضطراب المخيمين على هذا المصطلح قُيِّد بقيد الاستغناء، فأصبح مفهومًا مركبًا من لفظين: الإنسانية، والمستغنية.

والمراد بالإنسانية المستغنية: الاعتقاد بأن الإنسان بلغ درجة عالية من الرشد والعلم والإدراك، وأنه بات سيد نفسه وحاكم ذاته، وأنه قادر بذاته على تسيير شؤون حياته وتدبير أمور عيشه، وحلِ كل مشاكله وتطوير دنياه وتشكيل المنظومة الحياتية الأكمل والأفضل لحياته الفردية والمجتمعية، من غير احتياج منه لأي أحد خارج عن نطاق إنسانيته، ولا وصاية أية قوة مباينة لطبيعته.

وتؤمن النزعة الإنسانية المستغنية بأن العقل الإنساني على كل شيء قدير، ويمكنه أن يجيب على كل الأسئلة التي تطرح عليه، والكشف عن أفضل الأجوبة وأكملها المناسبة لتحقيق حياته الفاضلة، وتؤمن بأن الإنسان مقياس كل قيمة،

---

(١) انظر: موسوعة الفلسفة، لالاند (٢/٥٦٦)، ودليل أكسفورد للفلسفة (٢/٩٢٣)، والمعجم الفلسفي، جميل صليبا (١/١٥٨)، وإنسانية الإنسان، رالف بارتون (٩)، والإنسان الحديث، جوزيف وودكرتش (٥٠)، والهيوماتزم، مجلة عالم الفكر، المجلد الثاني، العدد الثالث (ص٢٣٣).

ومعيار كل المبادئ، وميزان كل الأفكار، وأنه هو الذي يصوغ حياته بما يشاء، وأنه هو الذي يرسم مستقبله ويحدد مصيره، وأن الإنسان هو الموجود الأعظم في هذا الكون، وأن له السيادة الكونية التي يجب أن يخضع لها كل شيء، ولا تخضع هي لشيء.

وترى النزعة الإنسانية المستغنية أن الإعلاء من شأن أي موجود آخر فوق منزلة الإنسان يعني بالضرورة التحقير من شأن الإنسان ومنزلته، فبقدر ما يرفع الإنسان من شأن الله بقدر ما يحط من قدر نفسه[١].

وتنطلق هذه النزعة من أن الإنسان لم يعد ذلك المخلوق الضعيف، الذي يخاف من كل شيء، ويخضع للخرافات والأساطير، ويستسلم للأوامر القادمة من غيره، وإنما أصبح رفيع المنزلة عالي المكانة، فقد بات المكتشف لأسرار الكون والعالم بقوانينه، والمؤثر في تغيير مجريات الحياة، والمؤسس للقوانين المحققة للسعادة والرقي، والصانع لأفضل الصناعات في كل المجالات.

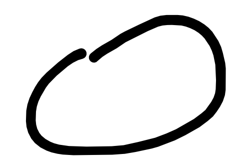
فلم يعد بالإمكان أن يخضع لسلطة أعلى منه أو خارجة عن نطاقه؛ لأن ذلك يعني تخليه عما وصل إليه من استقلال ورشد ذاتي، وفي تأكيد هذا المعنى يقول جوليان هكسلي: «الإنسان قد خضع لله بسبب عجزه وجهله، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه من قبل في عصر الجهل والعجز على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله»[٢].

فبعد أن كان الإنسان يؤمن بأشياء كثيرة خارج نطاقه، فإنه في لحظته التطورية هذه لن يؤمن إلا بذاته فقط.

ويطلق على النزعة الإنسانية في بعض الموارد مصطلح «العقلانية»، ولكن هذا المصطلح تعددت معانيه كثيرًا، وتنوعت مفاهيمه جدًّا[٣]، ومن معانيه: الإيمان بأن العقل الإنساني لديه القدرة الكافية على إدراك كل الحقائق الكونية وتفسير جميع الأسرار من غير معونة من أحد خارج نطاقه[٤].

---

(١) انظر: الله في الفلسفة الحديثة، جيمس كولنز (٣٥٤).
(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، محمد قطب (٦٣١).
(٣) انظر: دليل أكسفورد للفلسفة (٢/ ٥٩٧)، والمعجم الفلسفي، جميل صليبا (٢/ ٩٠).
(٤) انظر: المعجم الفلسفي، جميل صليبا (٢/ ٩١).



ويسميها المفكر المصري عبد الوهاب المسيري: «الإنسانية الطبيعية المادية»، ويقصد بها النزعة التي تعتقد أن الإنسان يدور في إطار المرجعية الكامنة في المادة، ويعيش بالطبيعة وعلى الطبيعة، وأن الإنسان مكتفٍ بذاته: مرجعيته ذاته، ومعياره ذاته، ولا توجد أية حدود أو سدود أو قيود عليه، وأنه جزء من الطبيعة، وينطبق عليه ما ينطبق عليها من أوصاف وتفسيرات. ويقابل الإنسانية الطبيعية عند المسيري الإنسانية الربانية، وهي النزعة التي تتجاوز المرجعية الطبيعية المادية وتؤمن بالنزعة الإلٰهية لخالق الكون[١].

وأما المفكر الجزائري محمد أركون فينعتها بـ«الاستقلالية الذاتية»، ويعرفها «بأن الذات البشرية هي التي أصحبت تبلور الأخلاق وقواعد السلوك، وتنظم المجتمع على مسؤوليتها الخاصة، حتى أصبح التشريع وسن القوانين مسألة بشرية بحتة»[٢].

وأما الفيلسوف الإسلامي المعاصر طه عبد الرحمٰن فيسميها: «النزعة الناسوتية»، ويعرفها بأنها التي لا تقر إلا بقيمة الإنسان فقط، ويقابلها النزعة اللاهوتية[٣].

ويعبر عن النزعة الإنسانية المستغنية بالمركزية الإنسانية، وهي مصطلح يراد به: «المذهب الذي يجعل الإنسان مركز العالم، ويعد خير الإنسانية علة غائية لكل شيء»[٤]. ويقابل هذه النزعةَ النزعةُ الإيمانية، التي تجعل المركزية في الكون لله تعالى، وتعده السيد والحاكم المتصرف في الوجود، وهو المقصود الأولي في كل التصرفات.

نشأة النزعة الإنسانية في الفكر الغربي وتطورها:

أول ظهور لمصطلح «الإنسانية» في الفكر الغربي الحديث كان في عصر النهضة في القرن السادس عشر، وقد أطلق على الحركة التي توجهت نحو الدراسات الإنسانية الأدبية، وسعت إلى إحياء العلوم اليونانية الرومانية، ونشرها

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (١/ ٧٣).
(٢) قضايا في نقد العقل الديني (٣١٦).
(٣) انظر: سؤال الأخلاق (١٤٨).
(٤) انظر: موسوعة الفلسفة، لالاند (١/ ٦٤)، والمعجم الفلسفي، جميل صليبا (٢/ ٣٦٥).

في الفكر المسيحي، واعتقدوا بأنها كفيلة بتحقيق العقلانية والخروج من مأزق الخرافة والركود الفلسفي والفكري الذي كانت تفرضه الكنيسة كما سبق بيانه.

ولأجل هذا اقترح إسماعيل مظهر لفظ «النشورية» ترجمة للمصطلح الأجنبي: «humanism» بدل لفظ «الإنسانية»، والنشورة مأخوذة من النشر، وحجته في ذلك أن المصطلح الأجنبي يقصد به حركة إحياء الأدب والفنون القديمة وبعثها من رقادها[١].

ولم يكن هدف الحركة الإنسانية في عصر النهضة معارضة الدين أو التمرد على قوانينه أو التهجم على أصوله، وإنما كانت في أكثرها ثائرة على العقائد الكنسية وانحرافاتها، وناقدة لأخلاق رجال الدين وتصرفاتهم، وإن كان بعضهم كان يميل إلى نقد أصل الدين ووجود الإله.

وفي القرن السابع عشر اشتدت نزعة التمرد الإنساني مع الثورة العلمية، التي أثبتت خطأ الدين الكنسي وتخلفه العلمي السحيق، وزاد من قوتها النشاط القوي في التفكير الفلسفي الذي قدس القدرات العقلية للإنسان، ومال ضد الخضوع للتعاليم الكنسية.

ومع ذلك فالنزعة الإنسانية في هذه المرحلة ما زالت في الأعم الأغلب محافظة على الالتزام بالقوانين الدينية، ومعلنة للخضوع له والاقتناع به، وفي توصيف حالة النزعة الإنسانية في هذه المرحلة يقول زكي نجيب: «جاءت النهضة الأدبية، فأعلنت معها حرية الإنسان في فكره، وانطلق العقل من قيود الفلسفة المدرسية إلى حيث الطبيعة، يجلوها ويفكر في جوانبها، وسرعان ما تنبه الإنسان إلى قيمة نفسه وعظيم قدره بين الكائنات؛ حتى نشأ لذلك مذهب خاص يعرف بالمذهب الإنساني، يرفع الإنسان إلى أرفع المراتب، ويضع مصلحته فوق كل شيء آخر»[٢].

وما زالت النزعة الإنسانية تزداد قوتها مع مرور الزمن، حتى بلغت في القرن الثامن عشر مرحلة التمرد والاستقلال الذاتي الشامل، فمع حركة التنوير توجه العقل الغربي إلى تقديس العقل الإنساني والإعلاء من قدراته وجعله الميزان

---

(١) انظر: المعجم الفلسفي، مراد وهبة (١١١).
(٢) قصة الفلسفة الحديثة (١/٤٦).

الذي يحكم من خلاله على كل شيء، واعتقدوا أن القدرة العقلية الإنسانية يمكنها أن تصل إلى الرشاد في كل الميادين الحياتية من غير توجيه من أي مصدر آخر خارج نطاق الإنسانية ذاتها.

واعتقدوا أن العقل الإنساني يتبوأ مركز السيادة الكونية، ومن حقه أن يحاكم كل شيء، وأنه بات السيد المطاع، الذي من حقه أن يوجه الأسئلة على كل شيء وعلى كل أحد حتى الإلٰه، ويؤكد ممثلو التنوير «أن العقل سبيلنا للنفاذ إلى الحقيقة الكامنة وراء الظواهر... وسيكون العقل أداتنا للاهتداء إلى المؤسسات أو العلاقات حتى ننتعش معها ونسعد بها، وسيكشف العقل عنا غشاوة الخرافات والخوارق، وغير ذلك من أمور تتنافى معه، وتراكمت عبر القرون على ظهر الأرض»[١].

فتحول العقل الإنساني إلى معبود جديد، وإله أرضي بديل عن الإلٰه العالي في السماء، ويشرح بول هاراز أبعاد النزعة الإنسانية المستغنية التي شاعت في الفكر الغربي وغدت مؤثرة فيه غاية التأثير فيقول: «كانت المفاهيم الموروثة الأكثر عمومية، كمفهوم القبول المطلق الذي يثبت الله ومفهوم العجائب في موضع الشك، وكانوا يقصون الإلٰهي إلى السموات المجهولة التي لا تدرك، فالإنسان والإنسان وحده أصبح مقياسا لكل شيء، كان هو مسوغ وجوده وغايته»[٢].

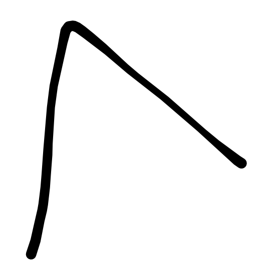
ويصف الحالة التي وصل إليها الثائرون على الدين فيقول: «وقد أفضى بهم الأمر إلى تأليه الإنسان: عندما نتبع العقل لا نخضع إلا لأنفسنا، ونصبح بذلك على وجه ما آلهة»[٣].

وأخذ المنظرون الغربيون ـ وأكثرهم من المعادين للدين ـ يبنون تصوراتهم وأنظمتهم المختلفة في معزل عن الدين وعن الوحي الإلٰهي، وأصبح العقل الغربي يتصرف وكأنه إلٰه لا يسأل عما يفعل.

فحاول الفلاسفة الإنسانيون الجدد «أن يستبدلوا بحضارة مرتكزة على

---

(١) تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون (١١٧)، وانظر: المصدر نفسه (١٢٨، ١٢٩).
(٢) أزمة الوعي الأوروبي (٩).
(٣) المرجع السابق (١٩١).



الواجب: الواجب نحو الله والواجبات نحو الملك، حضارة ترتكز على فكرة الحقوق: حقوق الوعي الفردي وحقوق النقد وحقوق العقل وحقوق الإنسان والمواطن»[١].

ويصف بعض الباحثين الغربيين الحال الذي وصل إليه الوعي الغربي فيقول: «لم يعد الإنسان يخضع إلا لعقله... فأيديولوجيا التنوير التي أقامت القطيعة الإبستمولوجية (المعرفية) الكبرى، قد فصلت بين عصرين من الروح البشرية: عصر الخلاصة اللاهوتية للقديس توما الأكويني (١٢٢٥ ـ ١٢٣٤م) وعصر الموسوعة لفلاسفة التنوير.. فراح الأمل بمملكة الله ينزاح لكي يخلي المكان لتقدم عصر العقل وهيمنته.. وراح نظام النعمة الإلٰهية ينمحي ويتلاشى أمام نظام الطبيعة، وأصبح حكم الله خاضعا لحكم الوعي البشري، الذي يطلق الحكم الأخير باسم الحرية»[٢].

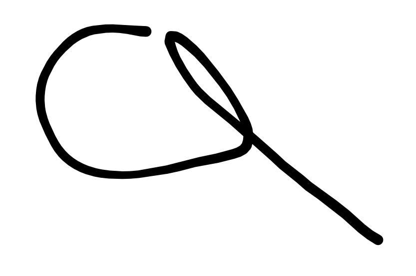
ويؤكد تزفيتان تودوروف أن الفكر الغربي في عصر التنوير تحولت المركزية فيه إلى الإنسان بعد أن كانت المركزية للخالق تعالى، وطفق الإنسان مشتغلًا بنفسه، ويرى أنه لم يعد في حاجة إلى أن يخضع لأي موجود آخر كائنًا من كان، ولم يعد الإنسان يبحث عن خلاصه يوم القيامة، وإنما اقتصر حرصه على تحقيق الرفاهية والسعادة في الحياة الدنيا فقط[٣]، «وقررت الكائنات البشرية لأول مرة في التاريخ أخذ مصيرها بيدها، وتواضعت على اعتبار رفاه الإنسانية الهدف الأسمى لأفعالها»[٤].

ويلخص عبد الرحمٰن بدوي غلو الحركة التنويرية في العقل بقوله: «عبادة العقل إذا هي الطابع الرئيسي لهذا القرن ـ الثامن عشر ـ ومبادئ العقل وحدها التي يجب أن يقوم عليها بناء الجماعة الإنسانية في مختلف ميادينها الروحية: سواء في السياسة وفي الأخلاق وفي المعتقدات وفي النظرة الكونية»[٥].

ويظهر تأليه العقل الإنساني بصورة كبيرة مع بناءات أتباع الدين الطبيعي

---

(١) أزمة الوعي الأوروبي، بول هازار (١٠)، والحوار الإسلامي العلماني، طارق البشري (٣٢).
(٢) الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني ـ التصدير ـ (١/ ٤٠).
(٣) انظر: روح الأنوار (٩٧ ـ ٩٩).
(٤) المرجع السابق (٧).
(٥) نيتشه (١٢٩).



لموقفهم الديني الجديد، فإنهم حين أنكروا الوحي الإلٰهي والأديان المنزلة طفقوا يعتمدون على المصير الإنساني، والعقل البشري في تأسيس الأخلاق والقيم، واستبدلوا بها التشريع الإلٰهي، فجان جاك روسو جعل الضمير الإنساني هو المرشد والهادي والمشرع للإنسان[1]. وأما كانط فقد صرح بأن بناء الأخلاق يقوم على استقلال الإنسان، وأنها لا تحتاج إلى الوحي، وأن الإنسان في بنائه لأخلاقه لا يحتاج إلى مرشد أعلى يهديه الطريق[2].

وما فتِئت النزعة الإنسانية مستمرة في إكمال جبروتها واشتداد سلطانها، حتى بلغت في القرن التاسع عشر درجة صارخة وصورة فاقعة من التمرد والاستقلالية، وأضحت تظهر في تشكلات متعددة وفي قوالب مختلفة غالية في التمرد، وأكثر ما تجلت هذه الصورة المتجبرة في ثلاثة فلاسفة مشهورين، هم: أوجست كونت (١٨٥٧م)، وفيورباخ (١٨٧٢م)، ونيتشه (١٩٠٠م).

أما أوجست كونت (١٨٥٧م) فقد دعا إلى ما عرف بدين الإنسانية، وهو دين يقوم على عبادة الإنسان بدلًا عن عبادة الله تعالى، باعتبار أن الإنسان هو الموجود الأعظم الذي تشاركت فيه كل أجيال بني آدم، وجعل لها طقوسًا وشعائر خاصة بها، وقد نصب نفسه الكاهن الأكبر للديانة الإنسانية، ووضع لها شعار المحبة كمبدأ، والنظام كأساس، والتقدم كغاية[3].

وأما فيورباخ (١٨٧٢م)؛ فإنه أسس النزعة الإنسانية الملحدة، التي ذهب فيها إلى أن مفهوم الله ليس إلا تأليه الإنسان لنفسه، وأن الإنسان يمارس عملية اغتراب مع ذاته، فيحول صفاته إلى إلٰه مقدس، فالإنسان عنده هو الإلٰه الحقيقي الوحيد لنفسه، والله ليس إلا تجسيدًا للطبيعة الإنسانية[4]، ويقول: «الكائن الروحي الذي يضعه الإنسان فوق الطبيعة، ويعتقد أنه خالقه وموجبها، ليس إلا الجوهر الروحي للإنسان نفسه»[5].

---

(١) انظر: دين الفطرة (٩٠، ١٢٨).

(٢) انظر: الدين في حدود العقل المجرد (٤٥)، وكانت والفلسفة النقدية، زكريا إبراهيم (٢١٦).

(٣) انظر: فلسفة أوجست كونت، هو الذي يكسب الباحثين الموهبة والسعة في الأفق، ويقول: ليفي بريل (٣٤٧ ـ ٣٥٢)، وتاريخ الفلسفة الحديثة، وليم كلي رايت (٣٨٣)، وتاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم (٣٢٧ ـ ٣٢٨).

(٤) انظر: أصل الدين، فيورباخ (٤٨)، والله في الفلسفة الحديثة، جيمس كولنز (٣٤٠ ـ ٣٤٣).

(٥) أصل الدين (٩٢).

وأما نيتشه (١٩٠٠م)؛ فهو الذي وصل بالنزعة الإنسانية إلى أعلى درجة من الشطط والغلو، وبلغ بها قمة العدمية والتمرد، وصرح بأن الإلٰه قد مات، ودعا إلى استبدال مفهوم الإلٰه بمفهوم الإنسان السوبرمان «المتفوق»، وقال على لسان زرادشت: «لقد ماتت جميع الآلهة، فلم يعد لنا من أمل إلا ظهور الإنسان المتفوق»[١]، ويرى أن الإيمان بوجود الإلٰه يحول بين الإنسان وبين إحساسه بنفسه؛ وأن ذلك عقبة في طريق سيادة الإنسان وتفوقه، فلا بد إذن من التخلص من وجود الإلٰه ذاته[٢].

وبعد أن أعلن نيتشه إلحاده سعى إلى إيجاد البديل عن الإيمان بالله، فأتى بالإيمان بالإنسان الكامل «السوبرمان»، وجعله إلهًا جديدًا للإنسانية، وقال على لسان زرادشت: «لقد كان الناس يتلفظون باسم الله عندما كانوا يسرحون أبصارهم على شاسعات البحار، أما الآن فقد تعلمتم الهتاف باسم الإنسان المتفوق»[٣]، وفي هذا الزمان الذي أعلن فيه موت الإلٰه: «تعود الظهيرة إلى ذر أنوارها، ويصبح الإنسان الراقي سيدًا»[٤].

وجعل الإنسان الواضع لكل شيء في هذا الكون، والخالق لكل القيم والمبادئ الفاعلة في حياته، وهو الذي أضفى على الكون كل ما فيه من معنى، وعده المرجع في الحكم على كل ما في الكون، ويقول: «الحق أن الناس قد أعطوا أنفسهم كل خيرهم وشرهم، والحق أنهم لم يتلقوه ولم يجدوه، ولم يهبط إليهم من السماء»[٥].

ويعد نيتشه بهذه الأفكار المؤثر الأقوى في النزعة الإنسانية المستغنية، وهو الكاشف الأعمق عن قوانينها وآثارها، فهو يعد أول فيلسوف غربي يواجه فقدان الإنسان للإيمان بالله تعالى وبالأديان مواجهة كاملة مكشوفة، ومن أول من صرح عن الالتزام بمقتضيات تلك الرؤية، فصرح بالعدمية وفقدان المعنى والأخلاق في الحياة[٦].

---

(١) هكذا تحدث زرادشت (٦٥).

(٢) انظر: نيتشه، فؤاد زكريا (٤٠، ١٣١).

(٣) هكذا تحدث زرادشت (٧٠).

(٤) المرجع السابق (٢٤٠).

(٥) نيتشه، فؤاد زكريا (٥٣).

(٦) انظر: الوجه الحقيقي للإلحاد، رافي زكراياس (٣٠).

وبهذه التصورات التي قررها أولئك الفلاسفة المؤثرون في الفكر الغربي بلغت النزعة الإنسانية درجة عالية من الانتشار والتوسع، وتوغلت كثيرًا في العقل الغربي، وباتت مخيمة على عقول كثير من رجالاتها.

واستمرت النزعة الإنسان فاعلة في الفكر الغربي ومؤثرة في تصوراته ومساراته، وكتب الإنسانيون في القرن العشرين بيانا، نشر سنة ١٩٣٣م، حددوا فيه رؤية المذهب الإنساني في آخر تطوراته في تلك المرحلة، ومما جاء فيه: أن الكون موجود بذاته وليس مخلوقا، وأن طبيعة الكون لا تقبل أي ضامن فائق على الطبيعة للقيم الإنسانية، وأنه قد ولى الزمن الذي يعتقد الناس فيه بالدين وبالله[١].

وفي عام ١٩٧٣م نشر الإنسانيون بيانهم الثاني، كرروا فيه نقدهم للأديان، وأكدوا على أنهم يبتدئون في تصورهم عن الكون والحياة من الإنسان وليس من الله، ومن الطبيعة وليس من الألوهية[٢].

وفي عام ١٩٨٠م أصدر الإنسانيون بيانا آخر جددوا فيه قيم النزعة الإنسانية، ومبادئها، ومما جاء فيه: «نحن بوجه عام شكاكون بخصوص ادعاءات وجود ما هو فائق للطبيعة... والإنسانيون العلمانيون قد يكونون لاأدريين أو ملحدين أو عقلانيين أو متشككين، فهم يعتقدون أن الأدلة لا تكفي من أجل إثبات الادعاء بأن هناك غاية إلهية موجودة في الكون»[٣].

ومن كل ما سبق ينجلي لنا بأن ظاهرة نقد الدين مرتكزة غاية الارتكاز على النزعة الإنسانية، تتضخم بتضخمها وتشتد باشتدادها، وهي متداخلة معها في كل المسالك، فلا تكاد تجد أحدًا من السالكين في المسارات النقدية للدين إلا وهو ممن تشرب الروح الإنسانية المستغنية عن الإلٰه وعن الاحتياج إليه، فأكثر الدعوات التي يقيمها ناقدو الدين تنطلق من قاعدة الإنسانية ويؤول إلى مدارجها.

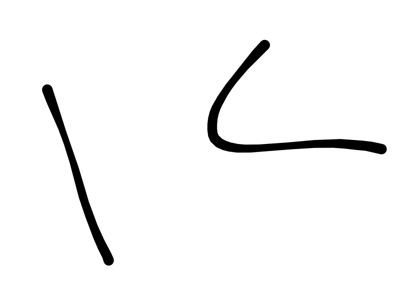
---

(١) انظر: وليم جيمس، محمود فهمي زيدان (١٨٤).

(٢) انظر: موقع دانيال هتانوا «بيان الإنسانيين العلمانيين»، رابط:

/https://humanitariansy.wordpress.com/2011/01/15/p1u2qs-f

(٣) المرجع السابق، الرابط نفسه.



نقد النزعة الإنسانية المستغنية:

لا شك أن الإنسانية لفظ براق، وحرف مزخرف أخاذ، وكلمة فاتنة، ومعنى نبيل، وفكرة شريفة عالية، ومبدأ عظيم، ولا يوجد أجد من العقلاء الأسوياء ينازع في أهمية الحفاظ على المعاني الإنسانية أو يتشكك في جلالتها، فالبلوغ إلى المنازل العالية في الإنسانية والوصول إلى الدرجات المرتفعة فيها مقصد لكل من يملك عقلا سليما وفطرة سوية.

وما كان كذلك من الألفاظ والمعاني فإنه يتطلب قدرًا كبيرًا من الاحتياط والتدقيق في بناء المواقف حولها قبولا ورفضًا، فليس من المقبول لدى أهل العقول السليمة أن يتساهل المرء في بناء موقف عن أمر عظيم جدًّا، فيقبل الموقف المتعلق به معتمدًا على الدعاوى المجردة عن الدليل والبرهان ويرتكز على الخطب المزخرفة وينجر وراءها، وإنما ضخامة الأمر وعظم شأنه يتطلب مزيدًا من التشدّد في قبول أي أمر يتعلق به، أو رفضه، فكلما ازداد الأمر أهمية ازدادت شروط قبوله ورفضه صرامة.

ومما يتفق عليه العقلاء أن معنى الإنسانية لا يتحقق في الوجود بمجرد الشعارات البراقة ولا الإعلانات الخلابة، وأن الدفاع عنها ضد منتهكيها لا يكون بمجرد الادعاء ورفع الأصوات، وإنما لا بد في كل ذلك من إقامة البرهان الصادق والدليل العلمي التطبيقي الواقعي.

وقبل أن نلج في محاكمة النزعة الإنسانية والكشف عن مواضع الخلل فيها لا بد من تأسيس المعايير التي تقوم عليها الإنسانية الحقة، فالكشف عن هذه المعايير يعد بمثابة تحديد الميزان الذي توزن به كل دعوى تدعي لنفسها الانتساب إلى الإنسانية وحمايتها ضد منتهكيها، ولأن المنادين بالنزعة الإنسانية ورافعي شعاراتها لم يقدموا أدلة برهانية ولم يسلكوا مسالك الاستدلال المنطقي والعقلي المعروف، وإنما غيروا من المعايير وبدلوا من الموازين، وجعلوها مستندا لهم في تسويغ دعواتهم وتسويق شعاراتهم، فضبط المعايير العقلية والفطرية والحياتية التي تقوم عليها الإنسانية الحقة هو السبيل الأعمق في نقد تلك النزعة كشف ما فيه من أغلاط ومفاسد.

والمعايير التي تقوم عليها المعاني الإنسانية وتقاس بها ماهيتها ترجع إلى ضابطين أساسيين، هما:

الضابط الأول: تحقيق الارتقاء الإنساني:

بحيث يكون الإنسان موجودًا متميزًا بكيان مخصوص متفرد واضح المعالم ومحدد الكيفية، بحيث لا يكون ملتبسًا بغيره من الحيوانات والموجودات، ويكون عاليًا على غيره من أجناس الحيوان.

والتميز الإنساني في الارتقاء إنما يتحقق بالقيم والمبادئ العليا التي تجعل تصرفاته أكثر نضجًا وحكمة من التصرفات الحيوانية الأخرى، وقد أشار الفيلسوف العربي المعاصر طه عبد الرحمٰن إلى أن أقوى ما يتميز به الإنسان عن البهيمة مبدأ طلب الصلاح، وهو الذي يسميه باسم «الأخلاقية»، فالأخلاقية عنده هي وحدها التي تجعل أفق الإنسان مستقلًّا عن أفق البهيمة، فالبهيمة لا تسعى إلى الصلاح في ملكوتها، فالأخلاقية إذن هي الأصل الذي تتفرع عليه كل صفات الإنسان من حيث هو إنسان، وتجعل إرادته وقصده متوجها نحو الكمال والصلاح[١].

ومن أعظم ما يحقق تميز الإنسان في الأخلاق والمبادئ ما يلتزم به من دين وشعائر تعبدية، فالأديان المنزلة من الله من أقوى الدوافع التي تؤدي بالإنسان إلى التمسك بما فطر عليه من مبادئ أخلاقية، بل لا يمكن أن تقوم الأخلاق وتؤثر في حياة الناس إلا بالإيمان بالله تعالى والالتزام بالدين الصحيح.

الضابط الثاني: تحقيق السعادة والرفاهية:

بحيث تكون حياة الإنسان أكثر سلامة وراحة في مسيرتها الحياتية من النواقص والعوارض المنافية للصحة الجسمية والعقلية والكرامة والسعادة وإزالة الشقاء.

فسعادة الإنسان معنى واسع، يشمل السعادة الجسمية، فلا يكون مصابًا بالأمراض والأدواء، والسعادة الروحية، فلا يكون مصابا بالاضطراب والوحشية وفقدان المعنى في الحياة، والسعادة العقلية، فتكون مبادئه وأصوله المعرفية

---

(١) انظر: سؤال الأخلاق، طه عبد الرحمٰن (١٤).

متصفة بالانضباط والاتساق، ويكون سالمًا من الاضطراب المعرفي والقلق الفكري.

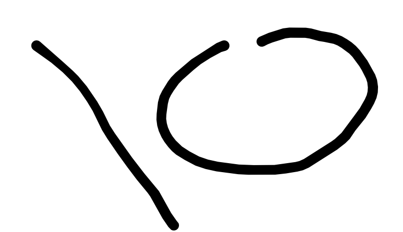
وهذان الضابطان متكاملان فيما بينهما، وكل واحد منهما محكوم بالآخر، ولا يقوم أحدهما إلا بتحقق صنوه، فهما الدعامتان اللتان يقوم عليهما بنيان الإنسانية، وانخرام أحدهما مؤذن بتهشم بنيانها، فلا تحقق السعادة والرفاهية للإنسانية مع عدم اعتبار التميز الإنساني عن البهيمة في القيم الأخلاقية، وكذلك لا تحقق المبادئ الأخلاقية مع عدم اعتبار تحقيق السعادة والرفاهية الحياتية.

إن عربة التطور الإنساني لا تسير أبدًا على عجلة واحدة، وإنما لا بد فيها من اجتماع العجلتين معًا ـ القيم الأخلاقية والروحية والمكون المادي ـ وفقدان إحداهما يستلزم بالضرورة تحطم عربة التقدم واضطرابها الشديد، وكل ذلك مؤذن بخراب الحياة الإنسانية.

إن مقياس الإنسانية الحقيقي لا يعتمد على مجرد ما صنعه الإنسان من أجهزة الراحة والرفاهية، ولا على نوع المراكب والمساكن المريحة التي وصل إليها، ولا على ما ركبه من أنواع الأطعمة والأشربة والملاذ، ولا على صنوف الأسلحة الفتاكة التي يستطيع أن يقتل بها شعوبا بأكملها، وإنما لا بد أن يجمع مع ذلك كله الحفاظ على التميز الحقيقي بين الإنسان وبين البهيمة، وأن يرتقي الإنسان في أخلاقه وعقله، ويعتلي بروحه وقلبه، ويهذب بها سلوكه وتصرفاته الحياتية، ويجعلها أكثر سموًّا ورقيًّا وأخلاقًا واتساقًا مع مقتضيات الفطرة والعقل.

وأي دعوة تتمحور حول ضابط منهما دون الآخر تعد دعوة ناقصة وقاصرة عن تحقيق معنى الإنسانية المنضبط، فمن يدَّعي أن الإنسانية تتحقق بمجرد الحصول على القيم مع التفريط والتقصير في المعاني والوسائل التي تحفظ للإنسان سلامة حياته وخلوها من الآفات، فدعواه باطلة كاسدة، وكذلك من يدعي أن الإنسانية تتحقق بمجرد تحقيق السلامة المادية للإنسان، والبلوغ إلى أعلى درجات الرفاهية الحسية، مع التفريط والتقصير في الحفاظ على القيم والمبادئ، فدعواه ناقصة كاسدة.

وإذا رجعنا إلى النزعة الإنسانية ـ بعد الانتهاء من هذه المقدمة التأسيسية ـ فإننا نجد أنها لم تكن ملتزمة بتحقيق الضوابط التي تقوم عليها الإنسانية الحقة



فضلًا عن أنها لم تقم على مقدمات صحيحة، ولم تستند إلى أدلة علمية منضبطة، وإنما ارتكزت على شعارات وعبارات عاطفية خاوية من المضمون البرهاني، واعتمدت على تحكمات لا تقوم على أسس علمية صحيحة، **وتفصيل هذا الكلام المجمل يتحصل بالحديث في ثلاثة مسارات:**

المسار الأول: فساد المسلمات؛ وفيه يبين أن النزعة الإنسانية لا تقوم على أسس صحيحة، وإنما تنطلق من مقدمات باطلة ومسلمات متوهمة، بنيت عليها دعاوى عريضة تتعلق بحياة الإنسان في الأرض وهدفه وغايته.

المسار الثاني: انتهاك النزعة الإنسانية لقيم الإنسان وتميزاته وخصائصه؛ وفيه يبين بأن النزعة الإنسانية لم تحافظ على الإنسان، ولم ترتق به، ولم تسم بروحه وأخلاقه، وإنما تسببت في كثير من الأزمات، وانحدرت بالحياة الإنسانية في حفر عميقة من المشكلات، وجعلت حياة الإنسانية محاطة بركام كبير من الصعوبات والانحرافات القاتلة.

المسار الثالث: الاكتمال الإنساني في الإسلام؛ وفيه يبين بأن القوانين والأحكام التي أتى بها الإسلام هي التي ـ لو التزم بها الناس ـ تحفظ للإنسان منزلته، وترتقي به في حياته، وتسمو به في أخلاقه وأهدافه، وتحقق له الاستقرار والاتساق، وتساعد بشكل كبير في تخليص الإنسان من أزمات الحياة وصعوباتها، وتقلل من مشكلاتها.

وتفصيل تلكم المسارات فيما يلي:

المسار الأول: فساد المسلمات:

فالنزعة الإنسانية المستغنية تنطلق من مسلمات باطلة تظن أنها صادقة، وقد اشتركت ثلاث مسلمات في تأسيس تلك النزعة، **وهي:**

ـ **المسلمة الأولى:** أن إيمان الإنسان بوجود الإله وسيادته المطلقة على الكون يتناقض مع كمال الإنسان ووعيه بحقيقته، ومعنى ذلك أن الإنسان إنما أقر بالله تعالى وتعبد له وتذلل لعظمته لكونه كان ناقصا في علمه وسيطرته على الكون.

وهذه المقدمة خاطئة كاسدة، وهي لا تعدو أن تكون توهما ركبه الناقدون للأديان في أذهانهم وصيروه مقدمة لقولهم، وهم لم يقدموا أي دليل أو برهان

يثبت صحتها، وإنما جعلوا مجرد ادعائهم دليلًا على صحتها، وأي دعوى لا يقام عليها دليل فإنه لا يصح قبولها والأخذ بها.

وبالنظر إلى المنهج الاستدلالي المنضبط فإن هذه المقدمة داخلة في دائرة المصادرة على المطلوب، وهو عيب يرد به الاستدلال بالاتفاق؛ وذلك أن أهل الأديان يرون في الإيمان بوجود الله قضية فطرية ضرورية لازمة للإيمان، ويعدون الإيمان بوجود الخالق مقتضى من المقتضيات الضرورية التي يدل عليها العقل نابعة عن التسليم بالمبادئ الفطرية، فإيمان الإنسان بالله تعالى وتعبده له هو الكمال الذي يجب على الإنسان أن يحرص عليه، وإلا كان خارجًا عما فُطر عليه ومناقضًا لما جبلت نفسه على مقتضاه، ولكن أتباع النزعة الإنسانية صادروا على هذا المعنى، وصيروا نفس معارضتهم دليلا على صحة قولهم.

ـ **المسلمة الثانية**: أن البنية الإنسانية قادرة على البلوغ إلى كل شيء، وقادرة على تحقيق الاكتفاء بذاتها، وأن الإنسان بعقله المنفرد وبجهده في العلم التجريبي يستطيع أن يحقق كل آماله ويبني كل أنظمته من غير مساعدة من أي أحد. .

وهذه المسلمة لا تختلف عن سابقتها في الخطأ والخروج عن المعقول، فلا شك أن العقل البشري يمتلك قدرة كبيرة في الإدراك، ويمكنه أن يصل إلى مراحل متقدمة من الاكتشافات والتخطيط العلمي والمعرفي، ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يصل إلى نهاية المعرفة المتعلقة بالكون، بل ولا نهاية المعرفة المتعلقة بذاته! وهو لا يستطيع أن يستقل بمعرفة كل الأمور المتعلقة بالكون والحياة، فما زالت في الكون أسرار مستعصية على الإدراك الإنساني، وما من مجال من مجالات المعرفة والعلم إلا تجد فيه من يصرح بأن ثمة أمورًا ما زالت في حيز المجهول المستغلق، وقد استقرت آراء كثير من العلماء في القرن العشرين على الإقرار بقصور العلم الإنساني، واستحالة أن يصل إلى كل مجهولات الكون والوجود.

وبات العلم الإنساني أكثر تواضعًا وإدراكًا لحقيقة أمره وطبيعة قدرته، وفي تأكيد ذلك يقول برتراند رسل في سياق حديثه عن الصراع بين العلم والدين: «العلماء يعترفون في تواضع بوجود مناطق يجد العلم نفسه عاجزًا عن الوصول

إليها»[1]، وفي إثبات عجز القدرة البشرية عن الإحاطة بكل ما في الكون يقول أينشتاين: «إن العقل البشري مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الإحاطة بالكون، فنحن أشبه الأشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها حتى السقف، فغطت جدرانها، وهي مكتوبة بلغات كثيرة، فالطفل يعلن أنه لا بد أن يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب، ولكنه لا يعرف من كتبها، ولا كيف كانت كتابته لها، وهو لا يفهم اللغات التي قد كتبت بها»[2]، وسيأتي مزيد تأكيد وبسط لهذه القضية في أثناء البحث[3].

ـ **المسلمة الثالثة:** أن العلاقة بين الله وبين البشر تقوم على الصراع والتنافس، فالإنسانية كانت على مر تاريخها في صراع مع الله حتى استطاعت أن تتخلص من سطوته عليها.

وهذه المسلمة قائمة على إمكان استقلال الإنسان بنفسه في التسيُّد على الكون وفي القدرة على تدبيره؛ ولهذا نزلوا ضمير الإنسان وإرادته وقدرته منزلة الإلٰه الخالق المشرع المدبر، وتوهموا بذلك أن الإنسان يمكن أن يكون ضدًّا لله ومنافسًا له ومتصارعًا معه، فانحصرت الخيارات عندهم في خيارين لا ثالث لهما، هما: إما أن يكون الإنسان سيِّدًا في الكون، وإما أن يكون الإلٰه سيدا له.

وهذا تصور أسطوري، مأخوذ من الفكر اليوناني الخرافي؛ وذلك أن اليونان كانوا يعتقدون أن الآلهة تتصارع مع البشر، وأنها تعادي البشر دائما، وأنها تخشى من البشر في كل لحظة وحين، وأن الإنسان في المقابل يحاول دائما التخلص من سلطة الآلهة، وأن بعض البشر استطاع أن يسرق من الآلهة النار المقدسة وأهداها إلى قومه[4].

والنزعة الإنسانية المستغنية ارتكزت على هذا الاعتقاد الخرافي مع شيء من التطوير والتحوير، وصيرته مقدمة لتصورها عن العلاقة بين الله وبين الإنسان،

---

(١) الدين والعلم (١٧١).

(٢) أينشتاين ونظريته النسبية، عبد الرحمٰن مرحبا (١٤٥)، بواسطة: قصور العلم البشري، قيس قرطاس (٩٦).

(٣) انظر: الفصل الثاني من الباب الثاني عند الحديث عن النزعة العلموية.

(٤) انظر: قصة الحضارة، ول ديورانت (٦/ ١٨٨).

وبنت عليها دعواها العريضة، وهي مقدمة لا تعدو أن تكون توهما من التوهمات الخرافية الخارجة عن نطاق العقل والمنطق.

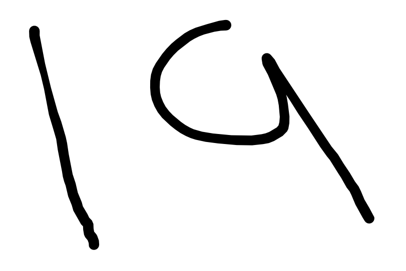
فإن العلاقة بين الله وبين الإنسان لا تقوم أبدا على الصراع والمنافسة؛ لأن التصارع والتنافس إنما يكون بين الأطراف المتقاربة في القوة والقدرة، وهذا الأمر غير متحقق البتة في قضية العلاقة بين الله وبين الإنسان، فالله الذي خلق الكون في غاية العظمة والجبروت والسعة، ولا يمكن للعقل الإنساني أن يحيط بذاته ولا بصفاته، ومما يدل على ذلك أن الكون الذي هو خلق من خلق الله لم يصل الإنسان ـ ولن يصل ـ إلى نهايته، فكيف بمن خلقه وأنشأه؟! وهذا دليل برهاني يقيني في تأسيس العظمة الإلٰهية التي لا يمكن للإنسان أن يحيط بها.

فإذا كان الأمر كذلك فكيف يصح في مقاييس العقل والمنطق أن يتصور أحد العلاقة بين ذلك الإلٰه العظيم الجليل وبين الإنسان الضعيف الضئيل الذي لا يعدو أن يكون ذرة صغيرة من ذرات الكون علاقةَ تصارع وتنافس؟! وأن الإنسان استطاع في نهاية الأمر أن ينتصر على الإلٰه؟! إن عقلًا يسلم بمثل هذه المعادلة لهو عقل فاقد لكل المعايير العلمية والمقاييس المنطقية السليمة.

ومع هذه العظمة الإلٰهية التي لا يستطيع أحد من البشر إدراكها فإن الأديان السماوية المنزلة من عند الله ـ وخاصة دين الإسلام ـ تؤكد أن العلاقة بين الله وبين خلقه قائمة على معاني الإجلال والتعظيم والحب والخوف والرجاء والتودد والشوق إلى اللقاء، وكثيرًا ما يتودد الله إلى بني آدم بالخيرات والبركات، وهذه المعاني الجليلة هي المرتكزات التي تقوم عليها العبودية لله تعالى، فالعبادة لله في الإسلام كما يقول ابن تيمية: «اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل ونهايته»[(١)]، ويقول ابن القيم في بيان حقيقتها: «العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع... فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له، حتى تكون محبًّا وخاضعًا»[(٢)].

ويقول مبيِّنًا موجب عبودية الإنسان لله: «ولما كانت عبادته تعالى تابعة لمحبته وإجلاله، وكانت المحبة نوعين: محبة تنشأ عن الإنعام والإحسان،

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٩).
(٢) مدارج السالكين (١/ ٧٤).



فتوجب شكرًا وعبودية بحسب كمالها ونقصانها، ومحبة تنشأ عن جمال المحبوب وكماله، فتوجب عبودية وطاعة أكمل من الأولى؛ كان الباعث على الطاعة والعبودية لا يخرج عن هذين النوعين»[1]، ثم أنكر على من جعل أساس العبادة الخوف من الله وحده.

وكثيرًا ما يصف الله عباده المؤمنين بأنه يحبهم وهم يحبونه كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وبأنه رضي عنهم ورضوا عنه، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فهذه الدلالات وغيرها تدل على شناعة الخطأ الذي وقع فيه أتباع النزعة الإنسانية حين ظنوا أن العلاقة بين الله وبين خلقه تقوم على الصراع والتنافس، ومن ثم لا بد من المصير إلى طرف واحد منهما.

وتحصل مما سبق أن الخيط الناظم للنزعة الإنسانية يرجع إلى عدم «تقدير عظمة الله حق التقدير»، فإنهم بنوا لأنفسهم تصورًا قاصرًا باطلًا عن الإلٰه الخالق القادر المدبر العظيم، ثم أخذوا يقابلون بينه وبين قدرة الإنسان وإرادته، وهذا التصور هو الأساس الذي يقوم عليه كل الانحرافات الخاطئة في التعامل مع الله تبارك وتعالى، وقد نبَّه الله الإنسان كثيرًا على خطورة هذا التصور فقال سبحانه: ﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزُّمَر: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

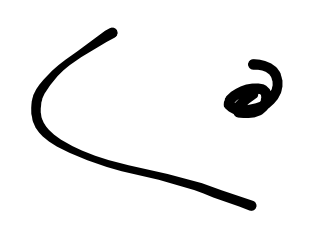
ومن خلال هذه المقدمات ينجلي للقارئ بأن النزعة الإنسانية تقوم على مقدمات باطلة وأسس متهالكة، وانكشاف بطلان المقدمات من أقوى ما يدل على بطلان ما بُني عليها من مواقف وآراء.

المسار الثاني: انتهاك النزعة الإنسانية لقيم الإنسان وتميزاته وخصائصه:

فمع أن أتباع النزعة الإنسانية يدعون أنهم من يحقق لها الوجود الفعلي في

---

(١) مفتاح دار السعادة (٢/٥٠٨).



الواقع، وبأنهم من يحافظ على الإنسانية ضد من يسعى إلى انتهاكها، إلا أن الأمر ليس كذلك في الحقيقة، فإن معاني الإنسانية أصيبت بانتهاك كبير مع تلك الدعوة حتى انتهت إلى مصير قبيح وسيئ، يؤدي حتما إلى زوال الإنسانية ذاتها؛ وذلك أن تلك النزعة تقوم على إنكار جزء أصيل من الإنسان ومكون أساسي من مكوناته، فهي لم تلتزم بالضوابط التي لا يقوم بنيان الإنسانية الحقة إلا عليها، وإنما غَلَت في جانب وهو الجانب المادي وقَصَرت معنى الإنسانية عليه، وأغفلت جوانب أخرى أصيلة في البنية الإنسانية.

إن الإنسانية الحقة بنيان مكون من أجزاء أساسية لا بد من توفرها جميعا في الحياة، فهي تقوم على المعاني الأخلاقية القيمية الكلية الثابتة، وعلى التسليم بالمبادئ الضرورية العقلية، التي منها بالضرورة الإيمان بالخالق لهذا الكون، وتقوم على تطلب المعاني المادية التي تحقق الاستقرار في الحياة الدنيا، وأي دعوة تقصر في جانب من هذه الجوانب فإن بنيان الإنسانية فيها سيكون مشوها عاطبا.

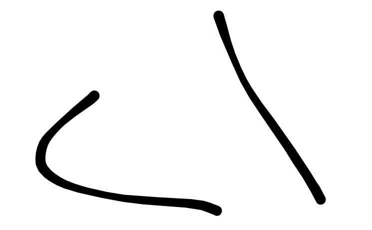
والنزعة الإنسانية أخلت بهذه الشروط؛ فأنكرت المعاني الأخلاقية والمبادئ الضرورية، وهذا التصرف يؤدي بالضرورة إلى تهشم الإنسانية وتحطمها، وفي تأكيد هذا المعنى يقول رئيس التشيك فاكيلا فهافل: «حينما أعلنت الإنسانية أنها حاكم العالم الأعلى، في هذه اللحظة نفسها بدأ العالم يفقد بعده الإنساني»[1]، ويؤكد علي عزت بيجوفيتش المعنى نفسه، فيقول: «إن القول بمذهب إنساني ملحد ضرب من التناقض؛ لأنه إذا انتفى وجود الله انتفى بالتالي وجود الإنسان، كما أنه لو لم يوجد إنسان، فإن الإنسانية التي يزعمونها تصبح عبارة بلا مضمون، إن الذي لا يعترف بخلق الإنسان لا يمكنه أن يفهم المعنى الحقيقي للإنسانية»[2].

إن آراء النزعة الإنسانية وتصوراتها التي تكونت حول الإنسان وطبيعته وماهيته ومكانته وعلاقته بالوجود من أقوى الأدلة التي تدل على أنها نزعة محطمة للإنسانية ومنتهكة لخصائصها، فقد أقامت تصورات فكرية عن الإنسان نزلت به

---

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، عبد الوهاب المسيري (٢/ ٢٦).

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب (١٠٣).



من السمو الذي كان يتصف به إلى حضيض الحيوانية، ومزقت هيكله المتفرد عن غيره من الموجودات، وهشمت بنيانه الجميل الذي كان يتفاخر به على غيره من الموجودات المخلوقة.

وقد ذكر جون لينكس أنه كثيرًا ما تكلم مع المثقفين الروس، وأنهم قالوا له: «كنا نظن بأننا قادرون على التخلص من الله والاحتفاظ بقيمة لبني البشر، لكننا كنا على خطأ، فلقد دمرنا الإيمان بالله والإنسان في آن واحد معا»[1].

فلم يعد الإنسان ذلك الكائن العاقل المفكر المريد المختار المتصف بالمشاعر النبيلة والحياة الكريمة شيئًا مختلفا عن أصناف الموجودات الطبيعية الجامدة، وعن صنوف الحيوانات الأخرى التي تعيش الحياة البهيمية، وهناك أدلة كثيرة من واقع النزعة الإنسانية تدل على صدق التوصيف السابق، **ومن ذلك**:

الدليل الأول: انتهاك شرف الأصل الإنساني:

فبعد أن كان الإنسان يتميز عن غيره بأن الله خلقه خلقًا خاصًا، الذي يجعله مخلوقًا متفردًا على غيره من الحيوانات الأخرى، ألغى دعاة الإنسانية هذا التميز، وجعلوا وجود الإنسان مجرد حادث عادي جاء نتيجة ضربة عشوائية من ضربات المادة الصماء، مثله مثل أي حيوان آخر، بل قد تكون بعض الحيوانات أفضل منه في مستقبل الأيام، وهذا ما صرح به جوليان هكسلي، حيث يقول: «من المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات، ولكن قد يحل محله القطة أو الفأرة»[2].

وفي هذا التصور انتهاك فظيع لرقي الإنسان وعلوه على سائر أجناس الحيوان، وفيها فتح للأبواب مشرعة لانتهاك الأخلاق والمبادئ، وذلك أن تحول الإنسان إلى مجرد حيوان لا يختلف عن غيره من الحيوانات في أصل خلقته إلا أنه أسرع بسبب الصدفة في تطوره منها يؤذن بأنه لا يختلف عن غيره في قيمه ومبادئه، وقد صدق الفيلسوف المعاصر روجيه جارودي حين ذكر أن الكرامة الإنسانية قد أُذِلت في الغرب إذلالا عظيما، وطعنت ثلاث طعنات قاتلة، **أولاها**: على يد كوبرنيكس، فبعد أن كان الإنسان هو مركز الكون في النظرة التقليدية منذ

(١) أقوى براهين، د. جون لينكس (٥٧١).

(٢) الإنسان في العالم الحديث (٣) نقلًا عن: دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب (٣٥).



بطليوس، فقد حوصر وحوصرت أرضه التي يعيش عليها، وأصبح الاثنان معا يمثلان اليوم نقطة ضئيلة تستحق الرثاء وسط هذه المجموعة الهائلة التي لا قرار لها من الأجرام، **والثانية**: على يد داروين، الذي استبدل بالحقبة التاريخية القصيرة التي تحدث عنها الكتاب المقدس على مدى ستة آلاف عام من الحوار بين الإنسان والله ملايين من سنوات التاريخ وما قبل التاريخ، **والثالثة**: على يد التحليل النفسي عند فرويد، الذي قدم للإنسان صورة قوامها مجموعة كبيرة من القوى المتباينة، وتكوّنت النفس البشرية من العقد المخيفة لها، وهي عقد قابلة دائما لأن تفلت من أيدينا وينفرط عقدنا[1].

بل إن فرويد ذاته ذكر أنه يجب «على الإنسانية في مرور الزمن أن تتحمل من أيدي العلم ثلاث إساءات فظيعة على حبها الساذج لذاتها»[2]، وهي: اكتشافها أن العالم بقعة صغيرة في كون رحيب لا مركز للكون، واكتشافها أن الله لم يخلقنا خلقًا فريدا، ولكن انحدرنا من القردة، واكتشافها أن عقولنا الواعية لا تخبرنا بالكيفية التي انتصر بها، ولكنها تخبرنا بقصة جينات تهدف إلى خدمة الذات[3].

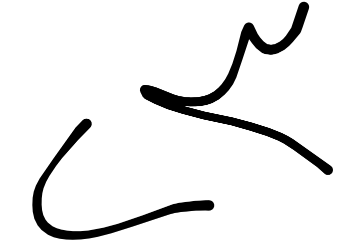
ويكشف جوليان هكسلي بوضوح عن الانحدار الذي أصاب الإنسانية في النظريات الغربية وفقدانها لتميزها ومركزيتها، فيقول: «لقد تأرجح رأي الإنسان كالخطار ـ البندول ـ فيما يتعلق بمركزه بالنسبة لبقية الحيوانات، بين إعجابه الشديد أو القليل بنفسه، تفصل بينه وبين الحيوانات حينًا هوة سحيقة جدًّا، وحينا آخر هوة صغيرة جدًّا . . . وبظهور نظرية داروين بدأ الخطار يتأرجح عكسيا، واعتبر الإنسان حيوانا مرة أخرى، ولكن على ضوء العلم لا على ضوء الإحساس الساذج، وفي بادئ الأمر لم تتبين تماما نتائج هذا الرأي الجديد. . . إلا أن الخطار وصل شيئًا فشيئا إلى أقصى مدى تأرجحه، وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض داروين، فالإنسان ـ في رأي داروين ـ حيوان كغيره؛ ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية والمثل العليا لا تستحق بالنسبة لباقي الكائنات تقديرًا أكثر من آراء الدودة الشريطية، أو بكتيريا الباشلس، والبقاء هو

---

(١) انظر: نظرات حول الإنسان (٢٩٤).

(٢) انتحار الغرب، ريتشارد كوك (١٠٢).

(٣) انظر: المرجع السابق (١٠٣).



المقياس الوحيد للنجاح التطوري؛ ولذلك فكل الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة»[١].

وفي دراسة فرانسيس فوكوياما عن الإنسان ذكر أن الداروينية أزالت جوهر الإنسانية التي تميزها عن أجناس الحيوان، وأضحت الطبيعة البشرية ليست إلا عرضًا تاريخيًّا للعملية البيولوجية العشوائية[٢].

وبذلك فقدت الإنسانية ما كانت تتفرد به من الرفعة الروحانية والأخلاقية، التي مردها إلى الخلق الخاص من الله، وتزعزعت القدسية التي كان يستمدها الإنسان من ذلك الخلق الخاص، وصار من جهة أخرى فاقدًا للأسس التي يقيم عليها القيم الأخلاقية؛ لأن كل تلك القواعد زائفة لا ثبات لها ولا استقرار، وإنما هي مفروضة على الإنسان من خارجه نتيجة الجهل والضعف[٣].

الدليل الثاني: إفساد الحقيقة الإنسانية وتحجيمها:

فبعد تنكر النزعة الإنسانية المستغنية للمصدر الرباني الحكيم لخلق الإنسان لم يعد لديها إلا مصدر واحد فقط ترجع إليه الوجود الإنساني، وهو المادة، وهي صماء عمياء، لا قصد لها ولا غاية، ولا تتصف بإرادة ولا حكمة، ولا رحمة ولا مشاعر، وأضحى الإنسان جزءًا منها، وتحول الإنسان من المخلوق الرباني ذي الاختصاص الإلٰهي إلى مجرد جزء من المادة، وتشكلت ظاهرة «الإنسان الطبيعي»؛ أي: الإنسان الذي يدور في إطار الطبيعة المنحصرة في المادة، يعيش في الطبيعة، ولا فرق بينه وبين مكونات الطبيعة الأخرى، ولا يختلف عنها في الأهداف ولا القوانين[٤].

فتحول الإنسان جراء هذا التصور إلى مجرد كونه جزءا من الطبيعة لا يختلف عنها في أمور جوهرية، وإنما يقع الاختلاف في طريقة التركيب وفي درجته فقط.

وبدل أن كان الإنسان يحمل حقيقة مركبة، تشترك فيها مادة أرضية ومعاني

---

(١) الإنسان في العالم الحديث (٣) نقلًا عن: دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب (٣٤).

(٢) انظر: نهاية الإنسان (٢١٨).

(٣) انظر: معركة التقاليد، محمد قطب (١٩).

(٤) انظر في صفات الإنسان المادي الطبيعي: موسوعة اليهود واليهودية، عبد الوهاب المسيري (١/ ٧٣).

روحية إلهية وضعها الله في داخله وفطره عليها، تجعل حياته مختلفة عن الطبيعة في الأهداف والمعاني والقوانين، تحول إلى مجرد كائن ليس له إلا بعدٌ واحد فقط، هو البعد المادي، فتشكلت ظاهرة «الإنسان ذو البعد الواحد»، ويراد بها الإنسان المنحصر في نطاق المادة، فلا يفكر إلا فيها، ولا يعمل إلا لأجلها، ولا يقيس الأمور إلا بمقاييسها، وهدفه التقدم العلمي والصناعي والمادي، ويعظم الإنتاجية الاستهلاكية، ويجعلها مقياس سعادته ورفاهيته[1].

وبعد أن كان الإنسان يتصف بالإرادة والمشاعر النفسية من الحب والبغض والكراهة، والقصد إلى الخير أو الشر والإحساس بالمسؤولية على الأفعال، فقد أُلغي مع النزعة الإنسانية كل ذلك، وتحول الإنسان إلى مجرد نظام طبيعي كغيره من الأنظمة الطبيعية، وكل مشاعره وصفاته وأخلاقه النبيلة أضحت عبارة عن تفاعلات بيولوجية مجردة، ليس لها أي مضمون قيمي ولا أخلاقي، وغاية ما لها أنها تؤدي وظائف عصبية وجينية محضة، لا يملك الإنسان معها أي اختيار في تعديلها أو تطويرها، وإنما هو مسير ومجبور على مسارها، وتحول الإنسان إلى آلة طبيعية ضخمة مكونة من أتراس متعددة، وما يحدث له من مشاعر وحب وبعض وكراهية وإرادة وقصد إنما هو عبارة عن نتيجة لتحرك تلك الأتراس الطبيعة، ولا شيء غير ذلك!

وهذه التصورات لها آثار عميقة في حياة الإنسان، فإن من أقوى ما يؤثر في التعامل مع أي موضوع ما طبيعةَ التصور عنه وتحديد حقيقته، فمن تصور الإنسان جزءا من المادة وفرعًا من فروعها، فإنه لا محالة ستكون آراؤه التي يتبناها عن الإنسان منسجمة مع ذلك التصور.

ونتيجة لهذه الرؤية في التعامل مع الكيان الإنساني أضحى كثير من الماديين ـ وخصوصًا من يعتمد منهم على فرضية التطور ـ يصرح بمقالات عديدة تتضمن احتقار الإنسان، وأنه مجرد كتلة من الذرات المادية، وأنه لا يختلف عن غيره من مكونات الطبيعة، ولا فضل له عليها، يقول بيتر سينجر: «حياة رضيع ليست أغلى داروينيًّا من حياة شبمانزي أو خنزير»[2].

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية، المسيري (١/ ٢٥٣).

(٢) نقلًا عن: الإلحاد يسمم كل شيء، هيثم طلعت (٦٢).



ويقول عالم الأحافير جورج سيمبسون من جامعة هارفارد: «إن الإنسان نتيجة العمليات الطبيعية غير الهادفة، التي لم تكن تفكر يوما بإيجاده»[١]، ووفقًا لعالم الأحافير من جامعة هارفارد ستيفن جي جولد فإن علم الأحياء الدارويني: «قد نزع منا منزلة المخلوقات المثالية، المصنوعة على صورة الإله»؛ لذا ووفقًا للنظرة الداروينية فلسنا سوى «فكرة طائرة بالصدفة على العالم»[٢].

ويعبر بيتر سينجر المختص في أخلاقيات البحث الحيوي ـ وهو مناصر لقتل الأجنبة المعوقين ـ عن وجهة نظر مماثلة، فيؤكد على أن الداروينية تزودنا بأسس النظرة الدونية للكائن البشري[٣].

وينقل فوكوياما عن دايفد هل أنه قال: «إنني لا أدري لماذا يكون لوجود العالم البشري كل هذه الأهمية. . . أعتقد أن الكثير من الصفات التي تربط بهم إما زائفة أو هي فارغة، وحتى لو كانت حقيقية وجوهرية، فإن توزيعات هذه الصفات بخاصة ـ في معظمها ـ هي مجرد مصادفات تطورية»[٤].

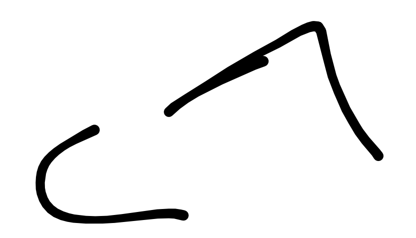
ويصرح ريتشارد دوكنز بأن داروين صدم غرور نوعنا البشري بإظهارنا كأبناء عم مقربين للقردة والسعادين، وهذا يؤكد أننا حيوانات أيضا[٥].

وكلام دوكنز متضمن لمغالطة بينة؛ لأن قيمة الإنسان ليست راجعة إلى خلقته الخاصة فقط، وإنما إلى ما يترتب عليها من آثار أخلاقية ومعرفية وسلوكية، فليست المشكلة في إثبات جنس الحيوانية للإنسان، وإنما المشكلة أن الحيوانية التي يتصف بها الإنسان متضمنة لقيم ومبادئ أخلاقية معرفية وسلوكية لا يمكن أن تبقى إلا مع الإيمان بأن الله تعالى خالق له، وإما اعتقاد أن الإنسان نتيجة الصدفة العمياء فهو نسف لكل تلك الامتيازات.

وهذا التحول العميق في طبيعة الإنسان يعد من أكبر الانتهاكات التي مورست على الإنسانية عبر التاريخ؛ لأن الإنسان ذلك المخلوق المتصف بالإرادة والقصد والأخلاق والمشاعر الروحية والمسؤولية تحول إلى مخلوق مجبور لا

---

(١) العلم وأصل الإنسان، آن جوجر وآخرون (١٧).
(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.
(٣) انظر: المرجع السابق (١٨).
(٤) نهاية الإنسان (٢١٩).
(٥) أيقونات التطور علم أم خرافة، جوناثان ويلز (١٤٢).



يملك لنفسه أي شيء، ولم يعد هناك فرق بينه وبين أحقر الحيوانات في طباعها، فلم يعد هناك فرق بينه وبين الضباغ والخنازير في أن كلًّا منها لا تعدو صفاته أن تكون استجابة لعمليات بيولوجية محضة، إلا أن الطبيعة الصماء العمياء اختارت له صفات مختلفة عن تلك الحيوانات!

وفي توصيف أثر هذا التحول العميق يقول علي عزت بيجوفيتش: «إن تقليص الإنسان إلى مجرد وظيفة إنتاجية استهلاكية ـ حتى ولو كان له مكان في عمليات الإنتاج الاستهلاكي ـ ليس علامة على الإنسانية، وإنما هو سلب للإنسانية»[(١)].

وهكذا ضُرِبت الإنسانية في مقتل، حيث أضحى الإنسان ليس إلا مجموعة من الدوافع المادية الاقتصادية والجنسية التي لا يملك معها أي خيار، ولا يختلف سلوكه فيها عن سلوك أي حيوان أو بهيمة عجماء[(٢)].

إن حيوانية الإنسان وماديته التي استقرت في ساحة واسعة من الفكر الأوروبي بسبب النزعة الإنسانية الملحدة ترتب عليها أن المجتمع لم تعد تسيّره مفاهيم الإنسان الراقية ولا تصوراته ولا مشاعره النبيلة ولا سلوكه المستقيم، وإنما تسيّره بدل ذلك كله مفاهيم الحيوان، ومفاهيم الآلة، ومن ثم تضاءل مكان العقيدة والقيم الأخلاقية والروحية، ونقلت ضوابطه الخلقية والجنسية، وهبطت علاقة الجنسين، وتحولت طبيعة الإنسان إلى مجرد آلة إنتاجية تنتج وتنتج وتنتج، ثم تزول ولا شيء غير ذلك[(٣)].

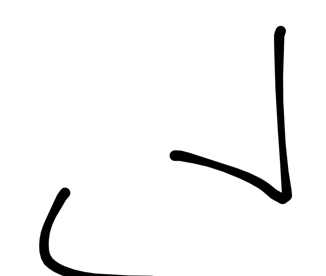
والكلام السابق ليس حكما على الأفراد بالضرورة، وإنما هو حكم على المنظومة المادية التي قامت عليها النزعة الإنسانية المستغنية، وأما أفراد الناس فلا يزال منهم من يلتزم بالأخلاق الحميدة ويستقبح الرذائل ولا يفعلها، ولكن تلك الأعمال لا يمكن أن تؤسس على المنظومة المعرفية التي قامت عليها النزعة الإنسانية.

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب (١٠٢).

(٢) انظر: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، عبد الوهاب المسيري (٤٩).

(٣) انظر: التطور والثبات في حياة المسلم، محمد قطب (٢٩٧).



الدليل الثالث: إفساد الأصول الأخلاقية والمنطلقات القِيَمية:

فبعد أن كان الإنسان يبني أخلاقه على أسس ومبادئ ثابتة وباقية في كل زمان ومكان، فاتصفت أخلاقه بالاتساق والاطراد، ألغى دعاة النزعة الإنسانية الملحدة تلك المبادئ، وشنوا عليها حربًا ضروسًا، فلم تعد هناك مبادئ مطلقة تحكم تصرفات الإنسان وتضبط سلوكه، وإنما تحولت المنظومة الأخلاقية إلى أمور نسبية إضافية تختلف من زمان إلى زمان ومن مكان إلى مكان.

والحديث في هذا السياق متعلق بمستوى البناء والتأسيس المعرفي والمنهجي، وليس بمستوى السلوك الفردي اليومي، فقد يوجد ملحد ذو أخلاق نبيلة، وفي المقابل قد يكون مؤمن ذو أخلاق قبيحة، فحصول ذلك لا ينكره أحد وليس هو محل البحث هنا، وذلك أن هناك فرقًا بين الالتزام الأخلاقي وبين مستند ذلك الالتزام ومنطلقه، وبعبارة أخرى: هناك فرق بين سؤال: ما الأخلاق؟ وسؤال: لماذا يجب أن نلتزم بالأخلاق؟ فالبحث في السؤال الثاني وليس الأول.

ومضمون السؤال الثاني متعلق بجانب التأسيس والبناء المنهجي للأخلاق، فإنه يستحيل أن يبنى على أصول الإنسانية المستغنية التي تنكر وجود الإله، وقد عبر علي عزت بيجوفيتش عن هذا المعنى بعبارة ظريفة قال فيها: «يوجد ملحدون على أخلاق، ولكن لا يوجد إلحاد أخلاقي»[١]، ويؤكد هذا المعنى في سياق آخر فيقول: «الأخلاق كمبدأ لا توجد بلا دين، بينما الأخلاق العملية يمكن لها أن توجد في غياب الدين»[٢].

ووجه ذلك أن المبادئ الأخلاقية والقِيَمية لا بد أن تكون مطلقة ثابتة، فالصدق من حيث الأصل يجب أن يبقى دائمًا في كل زمان ومكان محمودًا، والكذب من حيث الأصل يجب أن يبقى دائمًا قبيحًا، وكذلك الحال في الأمانة والكرم والخيانة والسرقة وغيرها من أصول الأخلاق الحميدة والمذمومة، ونزع صفة الثبات والإطلاق عن هذه الأخلاق يعني بالضرورة قتل الحياة الإنسانية وهتك القوانين الحاكمة للمجتمعات البشرية والتعاملات الحياتية.

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب (٢٠٥).

(٢) المرجع السابق (٢١٠).

فالحياة الإنسانية بجميع مكوناتها من الحديث والخطاب والبيع والشراء والنكاح والصداقة وغيرها من أصناف العلاقات الاجتماعية إنما تقوم على التسليم بوجود المبادئ المشتركة بين بني الإنسان، وعلى الإقرار بالقيم التي يمكن من خلالها الحكم على سلوك الإنسان بالصواب والخطأ، فإذا انتفت تلك المبادئ والقيم فلن ينتج عنها إلا الفوضى والخراب في حياة الإنسان.

وتأسيس المبادئ المطلقة الثابتة لا بد أن يعتمد على مصدر مطلق شامل في علمه وإدراكه وإحاطته بالوجود، وأن يكون متجردا من الميول الشخصية والفردية؛ لأن البلوغ إلى الإطلاق والموضوعية يستلزم انكشاف الحقائق كلها ماضيها ومستقبلها حتى يصح تأسيس ذلك الحكم، وإذا كان الأمر كذلك فإنه يستحيل حينئذ أن يكون الإنسان هو مصدر تلك القيم؛ لأنه محدود في إدراكه وعلمه بالوجود، وقاصر في وعيه عن الإحاطة بكل ما يتعلق بالحياة والوجود.

وفي تأكيد هذه النتيجة يقول علي عزت بيجوفيتش: «لا يمكن بناء نظام أخلاقي على الإلحاد»[١]، وذلك أن الإلحاد يقوم على إنكار وجود الخالق، ويُرجع جميع القوانين والمبادئ إلى وضع الإنسان أو الطبيعة، وهي أمور مقيدة متغيرة، وقد أقر بعض الملاحدة بأن إنكار الإلٰه يعني إنكار الأخلاق، فيقول بول سارتر ـ أحد أقوى مؤسسي الوجودية الملحدة ـ: «إن الوجودي يعتقد أنه من المؤلم جدًّا ألا يوجد إله؛ لأن كل احتمال للعثور على قيم في سماء من الأفكار يختفي باختفاء الله»[٢].

ويزيد موقفه تفصيلًا فيذكر أن الوجودية الملحدة تذهب إلى أن عدم وجود الله معناه عدم وجود القيم المعقولة كذلك، وعدم وجود الخير بصورة مسبقة؛ لأن عدم وجود الله معناه عدم وجود وجدان كامل لا متناه يعقل ذلك الخير، وهكذا يصبح القول بوجود الخير أو بوجوب الصدق والنزاهة قولًا لا معنى له[٣]. ويعبر دوستويفسكي عن هذا المعنى بعبارة صريحة فيقول: «إذا لم يكن الله موجودًا فكل شيء مباح»[٤].

---

(١) المرجع السابق (٢١٠).

(٢) الوجودية الإلحادية ـ ضمن آراء فلسفية في أزمة العصر، آدريين كوخ ـ (٢٧٢).

(٣) انظر: الوجودية مذهب إنساني (٢٤).

(٤) المرجع السابق (٢٥)، وانظر: دواعي الإيمان في عصرنا، الأب جيوفاني مارتنتي (٢/٣٣٦).



ويقول ريتشارد فيكار: «لقد نجح الإلحاد في قلب موازين الأخلاق رأسًا على عقب، ووفر الأساس العلمي لكل المجرمين والقتلة لقناعة أنفسهم ومن تعاون معهم بأن أبشع الجرائم العالمية كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة»[١].

وبسبب إنكار أتباع النزعة الإنسانية للمبادئ المطلقة والقيم الثابتة وقعوا في اضطراب شديد مفرط في التعامل مع قضية الأخلاق؛ وذلك أنهم يجدون موقفهم الهادم لأصول الأخلاق يتصادم مع ما يجدونه في نفوس المجتمعات الإنسانية من ضرورة وجود القيم المطلقة، فكل إنسان سوي يجد في نفسه دافعًا داخليًّا يدفعه إلى اعتبار أن الصدق والوفاء والبذل والكرم والأمانة أمور محمودة جميلة، وأن الكذب والغش والخيانة والبخل والسرقة أمور مذمومة قبيحة، وهو ما يسميه الفيلسوف العربي المعاصر «عبد الوهاب المسيري» بـ«الإلٰهي الخفي» ويعني به: أن ثمة شيئًا ما غير مادي كامن في الإنسان يدفعه نحو فعل الخير وترك الشر، وإلى استحسان الصدق والأمانة وتقبيح الكذب والخيانة، وإن لم يتجه بأفعاله نحو تلك الأفعال فإنه يجد في نفسه شعورًا بالذنب وكأنه فقد جزءًا أساسيًّا من كيانه[٢].

وهذا التناقض مع الأمور الفطرية الضرورية التي يجدها المجتمع الإنساني في كوامنه الداخلية أوقع أتباع النزعة الإنسانية الملحدة في مأزق معرفي كبير، وهو إذا كان الإنسان مصدر الأخلاق والقيم فمن أين أتى ذلك الشعور النفسي الضروري إلى داخل الكيان الإنساني؟!!

وأضحى هذا السؤال من أصعب الأسئلة التي ترد على الفكر الإلحادي، وبات يطاردهم في كل محفل ويبرز لهم مع كل حوار ونقاش حول الأديان ووجود الإلٰه.

وقد اضطربت مواقفهم في التخلص من هذا السؤال، فتارة يصرفون الجواب عنه إلى القدح في تفاصيل الأخلاق التي أتت بها الأديان، وتارة يصرفونه إلى القدح في أخلاق بعض المؤمنين، وتارة أخرى يصرفون الجواب

---

(١) نقلًا عن: الإلحاد يسمم كل شيء، هيثم طلعت (٢٤١).
(٢) انظر: دراسات معرفية في الحداثة الغربية (١٨٩).



بالحديث عن كيفية نشأة الأخلاق عند الإنسان وأنها نشأت نتيجة التطور البيولوجي الذي مر به الإنسان في مسيرته الحياتية[١].

وكل ذلك خروج عن محل البحث والإشكال، فإن البحث ليس في تفاصيل الأخلاق التي أتت بها الأديان، ولا في إثبات أن كل مؤمن سيكون ملتزما بالأخلاق النبيلة، ولا في كيفية نشأة الأخلاق عند الإنسان، وإنما محله محصور في قضية واحدة محددة، وهي ما إذا كانت الأخلاق الإنسانية تقوم على مبادئ وقيم مطلقة أم لا، فهذا المعنى هو أساس البحث وجوهره، وسيأتي مزيد تفصيل لهذه القضية في مبحث لاحق[٢].

الدليل الرابع: إفراغ الحياة من المعنى:

أرادت النزعة الإنسانية أن تبني رؤيتها عن العالم والوجود والكون من غير الاعتماد على الوحي الإلٰهي، ومن غير الالتفات إلى الأديان، ومن غير الإيمان بوجود الله والاعتراف بربوبيته للكون وتدبيره للوجود، وأن تقدم بديلا عن التصورات التي تقدمها الأديان عن الحياة، ولكنها في الحقيقة لم تزل تتخبط في متاهات العقول الإنسانية.

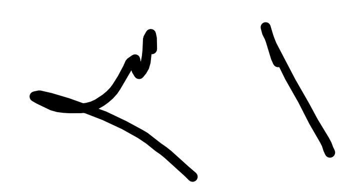
إن دين الإسلامي يقدم معاني واضحة وشاملة للحياة، فالإنسان خلقه الله ليعبده في الحياة الدنيا، والكون مصدره من الله، وهو الذي يدبره ويصرفه ويتحكم فيه، وهو الذي قدر فيه كل شيء، والإنسان له مصير محتوم لا بد أن يحصل عليه، إما النعيم المقيم في الجنة إن كان من المؤمنين بالله، وإما العذاب الأليم في النار إن كان من الكافرين، وهكذا يكون للحياة معنى في الوجود، وهدف محدد ومسار واضح المعالم.

ولكن الإنسانية المستغنية حين أعرضت عن الإيمان بالله، وتنكرت لوجوده ولأوامره ونواهيه، قتلت كل المعاني الرفيعة التي تجعل للحياة مقصدًا ومسارًا محددًا، وهتكت جميع القيم التي تضفي على الحياة الجمال والسعادة والأنس، فأصبحت الإنسانية تعيش حياة لا معنى لها، في كون لا معنى له، ووجود فارغ من أي معنى.

---

(١) انظر: وهم الإلٰه، ريتشارد دوكنز (٢٢٧، ٢٣٠).

(٢) انظر: الفصل الأول من الباب الثالث، عند الحديث عن الدليل الثالث من أدلة وجود الله تعالى.



وقد أكثر المتدينون من نقد الرؤية الإلحادية من هذه الجهة، وحاول عدد من الملاحدة إثبات أن الإلحاد والاستغناء عن الله لا يؤدي إلى قتل معاني الحياة، ولا إلى الإضرار بحياة الإنسان في الوجود، ولكن هناك عدد غير قليل من الشواهد تدل على صدق ذلك النقد، وعلى إثبات كونه أمرا متحققا في الحياة الإنسانية المستغنية عن الله.

لا جرم أن الإنسانية المستغنية وقعت في أصناف من الانتحارات القاتلة: انتحار عقلي حين يقولون: إن هناك نظامًا بلا منظم، وانتحار علمي حين يقولون: إن هناك حياة من اللاحياة، وانتحار فلسفي حين يقولون: لا غائية من الوجود ولا هدف، وانتحار إنساني حين يقولون: إنه لا جمال في أفعال الإنسان ولا معنى ولا قيم، وإنما هي نتيجة عمليات بيولوجية محضة.

وليس غريبًا نتيجة لتلك الأصناف من الانتحارات أن يتبنى عدد كبير من رواد النزعة الإنسانية المستغنية عن الله رؤية تشاؤمية عن الحياة، أظهروا من خلالها ما يعانون من فقدان المعاني والقيم في الوجود، وأبانوا عن أن الحياة أصبحت بالنسبة لهم بلا معنى ولا قيمة ولا هدف، وأكدوا على أن كل من يحاول أن يجعل للحياة معنى إنما يقوم بعملية خداع للذات.

ففي القرن الثامن عشر ظهر الفيلسوف الألماني شوبنهور، الذي يعد رجل التشاؤم الأكبر في الفكر الغربي، وقرر بأن حياة الإنسان قائمة على الصراع المستديم، وأن الإنسان لا يقل وحشية عن أي نمر أو ضبع، وذهب إلى أن الإرادة العمياء وغير العاقلة هي جوهر العالم، وانتهى إلى أن الوجود ذو ماهية بائسة خاوية من أي معنى، وأكد على أن الناس تعساء في كل أعمالهم وعلاقاتهم[(1)].

وظهر في القرن التاسع عشر نيتشه أشهر أولئك الرواد الذين تنكروا لمعنى الحياة، فقد جعل السعادة في الحياة هي مجرد الإحساس بأن القوة في تنام، وأن هناك مقاومة يتم الانتصار عليها، وجعل الاحتفاظ بالأخلاق والقيم والأهداف الروحية قتلا للحياة وسلبًا لها، ويقول: «أي شيء يعد حسنًا؟ كل ما

---

(1) انظر: موسوعة الفلسفة، عبد الرحمٰن بدوي (٢/ ٣٦)، وشوبنهور وفلسفة التشاؤم، وفيق غريزي (١٣٧ _ ١٤٥).

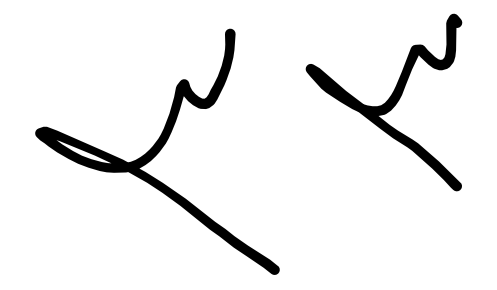
ينمي الشعور بالقوة، أي شيء يعد سيئا؟ كل ما يتأتى من الضعف، ما هي السعادة؟ الإحساس بأن القوة في تنام، وأن هناك مقاومة يتم التغلب عليها، ليس الرضا، بل مزيدًا من القوة، ولا السلم في كل الأحوال، بل الحرب، لا الفضيلة، بل البسالة، لا بد أن يضمحل الضعفاء وذوو التكوينة المعوقة، وعلينا أن نساعدهم على ذلك»[1].

وأما جان بول ساتر ـ أحد أعمدة تيار الوجودية الملحدة ـ فإنه ذكر أنهم حين أنكروا وجود الله وحكموا على فكرة خلقه للعالم بالفناء، انتهوا إلى إنكار القيم والمعاني المتعلقة بحياة الإنسان، فيقول: «إن الوجودية تقول: إن عدم وجود الله معناه عدم وجود القيم المطلقة كذلك، وعدم وجود الخير بصورة مسبقة قبلية؛ لأن عدم وجود الله معناه عدم وجود وجدان كامل لا متناه يعقل ذلك الخير، وهكذا يصبح القول بوجود الخير أو بوجوب الصدق والنزاهة قولًا لا معنى له؛ لأننا نصير بحال وجود إنساني بحت لا دخل فيه لوجود الله أو لقيم مصدرها الله. لقد كتب ديستوفيسكي مرة: إذا لم يكن الله موجودًا فكل شيء مباح. وما كتبه ديستوفيسكي هو النقطة التي تنطلق منها الوجودية، والتي نعتقد فيها أن إنكار وجود الله يعني أن كل شيء يصير فعلًا مباحًا، وأن الإنسان يصير وحيدًا مهجورًا، لا يجد داخل ذاته أو خارجها أية إمكانية يتشبث بها»[2].

ويؤكد برتراند رسل ـ وهو من الفلاسفة الملحدين وأقواله معتبرة عند كثير منهم ـ الرؤية العدمية التي انتهت إليها النزعة الإنسانية المستغنية عن الله، فيقول في كلام صريح معبر: «إن العالم الذي يقدمه العلم لمعتقداتنا هو مثل ذلك وأكثر في انعدام الهدف والغرض، والافتقار إلى المعنى، وفي وسط عالم مثل هذا يجب أن تجد مثلنا العليا مكانا فيه؛ لأن الإنسان هو محصلة لمسببات لا تعرف مسبقًا النتائج التي ستصل إليها، وأن أصله وتطوره، آماله ومخاوفه، ما يعشقه وما يؤمن به، ما هي إلا نتاج تجمعات عشوائية للذرات، وأنه لا هو نار، ولا هو بطولة، ولا هو وحدة شعور، ولا قوة فكر، بمقدورها استبقاء حياة فرد خارج القبر، وأن كل عمل للأجيال، وكل ما تم تكريسه واكتسابه واستلهامه،

(١) نقيض المسيح (٢٦).

(٢) الوجودية مذهب إنساني (٢٥).



وكل ضياء للعبقرية الإنسانية محكوم عليه بالفناء مع الفناء العظيم للنظام الكوني، وأن المعبد الخاص لإنجازات الإنسان بكامله يجب أن يدفن تحت أنقاض كون هالك»[١].

ويؤكد الفيلسوف المعاصر ولتر ستيس النتيجة التي انتهت إليها الإنسانية الغربية التي استغنت عن الله، فيقول: «لقد اتسم العالم الحديث بالكثير من الظلام والحيرة وفقدان القداسة، وربما أيضًا بزيادة هائلة في عدد المرضى العصبيين، والانهيارات العصبية في عصرنا، وفي استطاعتنا أن نتعقب ذلك عائدين إلى فقدان الإيمان بوجود أية غاية أو خطة لمسار العالم»[٢].

ويصور الفيلسوف تشستروتون شيئًا من الآثار العدمية التي يمكن أن تقع في حياة الإنسان إذا نسي الله تعالى وأعرض عنه فيقول: «إن الإيمان بعدم وجود الله يشبه من استيقظ في صبيحة أحد الأيام ونظر إلى المرآة ولم ير شيئًا، فحيث يغيب الانعكاس، ويغيب الإدراك، وتغيب معرفة الإنسان بذاته نهائيًا، لن يكون هناك أي معيار يقيس المرء نفسه عليه، ولن يوجد أي شيء يعمل المرء على تعديله، ومن ثم تصبح مقولة سقراط: (اعرف نفسك) مستحيلة»[٣].

وعبر بروفيسور تاريخ علم الأحياء الملحد ويل بورفاين عن هذه الحقيقة فقال: «يبدأ الأمر بالتخلي عن الإيمان بالإله، ثم التخلي عن الأمل في الحياة بعد الموت، وحين تتخلى عن هاتين الفكرتين فإن بقية الأمور تأتي بسهولة، حيث تفقد الأمل بأن هناك مبادئ أخلاقية سامية، وتعلم أخيرًا أنه لا توجد أي إرادة إنسانية حرة إذا أمنت بالتطور، فلا يمكنك أن تأمل في وجود أي إرادة حرة، ليس هناك أي أمل في وجود أي معنى عميق في الحياة الإنسانية، نعيش ونموت ونفنى، نفنى بالتأكيد حين نموت»[٤].

وفي أثناء دراسة نانسي هيوستن ظاهرة العدمية في الأدب الغربي قالت:

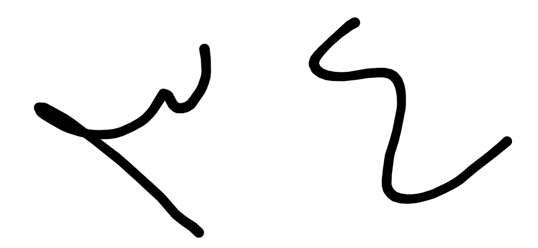
---

(١) عبادة الإنسان الحر (١٠).

(٢) الدين والعقل الحديث (١٢٠)، وانظر في آثار فقدان المعنى والغاية في الحياة: أزمة الإنسان الحديث (٦١).

(٣) الوجه الحقيقي للإلحاد، رافي زكراياس (٣٢).

(٤) ذكره أثناء مقابلته في فيلم «مطرودون»، الدقيقة (٦٠)، وهو مترجم إلى العربية، ومنشور في اليوتيوب.



«إن أول خطوة نحو العدمية هي الإدراك في سن مبكر أننا لسنا هنا في هذا العالم بفعل تدخل إلٰهي، ولا برغبة بشرية، ولكن بمحض الصدفة، وعرضا، بل وربما نتيجة غلطة، عندها يصبح وجودك في حد ذاته عبثًا، فتشعر بأنك زائد عن الحاجة، تجلس أمام جدار هذه المسَلّمة بلا حراك، يصيبك بالدوار والغضب المهتاج، وتتملكك الرغبة في تحطيم كل شيء»[1].

وحين نتأمل في كثير من الرؤى التشاؤمية العدمية التي طرحت في الفكر الغربي نجد مصدرها من الفلاسفة الذين اندرجوا ضمن تيار الإنسانية المستغنية التي تنكرت لوجود الله وتدبيره للكون.

وقد حاول بعض أتباع النزعة الإنسانية المستغنية أن يخرجوا من مأزق عدمية المعنى وانتهاك الحياة الإنسانية، فسعى إلى إيجاد معنى للحياة بناء على الرؤية الإلحادية، فتوصل إلى أن المعنى الذي يمكن أن تقوم عليه الحياة يرجع إلى المشاريع الخاصة التي يتمكن بها الإنسان في حياته ويشغل بها نفسه[2].

ولكنه غفل عن أن تلك المشاريع لا تمثل الغاية الكلية الدافعة إلى العمل والحافظة للسلوك الإنساني والموجهة لمساراته الكلية، ودعوته تلك لا تعدو أن تكون دعوة إلى الفردية القاتلة التي تمثل أحد معالم ضياع المعنى في الحياة.

ونتيجة لضياع المعنى في الحياة انتهى عدد كبير من أتباع النزعة الإنسانية المستغنية إلى جعل الحياة الإنسانية قائمة على الصراع المرير، فأضحى الاعتقاد بأن الحياة الإنسانية عبارة عن صراعات محتدمة متجذرًا في بنية العقل الغربي، ومتعمقًا في أرجائه، ومتربعًا في كل ساحاته، ومستحكمًا في جميع مفاصله[3]، فالإنسان في زعمهم يعيش أنواعًا من الصراعات: صراع مع الله، وصراع مع الطبيعة، وصراع مع جنس الحيوان، وصراع مع بني جنسه.

الدليل الخامس: انتهاك أصول المعرفة الإنسان وتميزاتها:

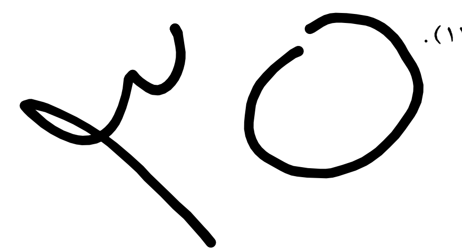
فمعرفة الإنسان لا تكون نافعة مفيدة ومحققة لتميزه عن سائر الحيوان إلا إذا كانت متسقة منضبطة، بحيث تؤدي إلى نتائج ظاهرة المعاني ومتماسكة البناء.

---

(١) النزعة العدمية في الأدب الغربي (٤١).

(٢) انظر: مجلة أنا أفكر (٢٣/ ٢٣).

(٣) انظر: الصراع في الفكر الغربي، عطية الويشي (٩٧ ـ ١٢٠).



ومن أعمق ما تتميز به المعرفة الإنسانية: إمكان البلوغ إلى اليقين وإمكان الاستدلال والتعميم في الأحكام، وهذه الأمور لا يمكن أن تقوم إلا مع الإيمان بوجود الله تعالى، كما سيأتي بيانه.

ولكن النزعة الإنسانية المستغنية حين تنكرت لأصل الإنسان، وأنكرت الوجود الإلٰهي أو تأثيره في الكون أبطلت جميع الأصول التي يمكن أن تقوم عليها المعرفة الإنسانية، وأزالت كل المستندات التي تنبي عليها مميزاتها.

فبناء على الأصول المادية للنزعة الإنسانية لا يمكن أن يقيم الإنسان معرفة منضبطة، وسيقع لا محالة في الاضطراب، وفقدان المستندات التي تحقق الاستقرار المعرفي لديه، وسيكون ضحية الشك والتردد وعدم الجزم بما لديه من معارف، وسيفقد كل الأصول التي يمكن أن يعتمد عليها في مواجهة السفسطة التي تشكك الناس في كل معارفهم، وتدخل الاضطراب في جميع تصوراتهم.

فإذا كان العمل الذي يقوم به العقل الإنساني عبارة عن مجرد حركة للذرات في الدماغ من غير وعي ولا هدف ولا قصد ولا غاية، فلماذا نثق فيما ينتجه؟! وما الدليل على أن ما أنتجه من أفكار هي الأفكار الصحيحة؟! وما الضمانة التي تجعلنا نسلم باستمراره في تلك الحركة؟! وما المسوغ الذي يدعونا إلى تعميم الأحكام ونقلها على الحوادث الأخرى المشابهة؟!

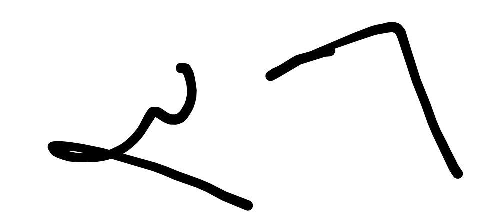
إن إنكار وجود الله تعالى وتدبيره للكون يعني بالضرورة إغلاق باب اليقين فيما ينتجه العقل الإنساني وانسداد كل منافذ الثقة في مخرجاته، لكون الوصول إلى اليقين لا يمكن إلا مع الإيمان بالحكمة والقصد والغاية.

والنتيجة الضرورية للكلام السابق أنه إذا كان الله غير موجود فلن يكون هناك علم نافع للبشر، وإذا أنكر الإنسان الإيمان بالله تعالى فقد أغلق على نفسه كل مسالك العلم الصحيح، وسيبقى في متاهات الشك والاضطراب والقلق.

وقد أشار إلى هذه النتيجة عدد من العلماء، فذكر العالم الكيميائي هالدن أنه إذا كانت أفكارنا نتيجة حركة عشوائية في ذرات عقولنا، فما الذي يدعونا إلى الثقة فيها؟! وما الذي يسوغ لنا الاعتماد عليها؟! وما الأسس الاعتقادية التي تثبت صحتها؟![1].

---

(١) انظر: من خلق الله إدكار أندروز (٢٥٤)، وأقوى براهين جون لينكس، جمع أحمد حسن (١٥٧).



ويقول المفكر الإيرلندي كليف لويس: «لنفترض أنها مجرد ذرات داخل جمجمتي تعطي ناتجا ثانويا يسمى فكرا، إذا كان الأمر كذلك كيف أثق أن تفكيري صحيح؟! إنه مثل إبريق الحليب الذي عندما تخضه تأمل أن الطريقة التي تتناثر فيها بقع الحليب ستعطيك ذاتها خريطةِ لمدينة لندن»[1].

ولخص الفيلسوف الأمريكي ألفين بلانتينغا فكرة هذا المأزق فقال: «إن كان دوكنز محقا بأننا نتاج عمليات طبيعية غير موجهة وغير عاقلة، فسيكون قد أعطانا عندها سببا قويا لنشك بموثوقية ملكاتنا المعرفية البشرية، وبالتالي حتما الشك بمصداقية أي اعتقاد عنها، ومنها ضمنها علم دوكنز الخاص وإلحاده»[2].

ومن أعمق الآثار العملية لإبطال مسالك اليقين في المعرفة الإنسانية: إبطال ثنائية الصواب والخطأ والنافع والضار، وإغلاق أبواب الإقناع بالأفكار الصحيحة وترك الأفكار الخاطئة، وستغدو حياة الناس مضطربة لا يدعى فيها إلى صواب ولا يحذر فيها من خطأ.

الدليل السادس: انتهاك مستندات حقوق الإنسان:

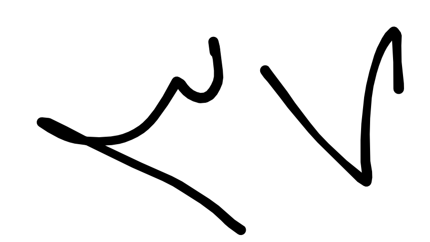
فقد ادعت النزعة الإنسانية المستغنية عن الله أن الإنسان أضحى راشدا ويمكنه أن يبني أنظمته وحياته من تلقاء نفسه من غير أن يحتاج إلى الله تعالى، وأنه يستطيع أن يحدد الحقوق التي تؤسس لحياته الرشيدة.

ولكن أتباع تلك الدعوى وقعوا في مأزق بنائي شديد، وذلك أن تحديد حقوق الإنسان يتطلب أولًا تحديد حقيقة الإنسان ذاته ومعرفة ماهيته، ويتطلب أيضًا الإقرار بأن للطبيعة الإنسانية ماهية مختلفة عن سائر أنواع الطبيعة المادية وأعلى منها، ولكن الأصول المادية لا تقدم جوابًا منضبطًا عن هذه القضايا، وهذا مأزق يقع فيه أتباع النزعة المادية الذين تنكروا للأصل الإلٰهي للإنسان وكرامته الربانية.

ومن أشهر العلماء الذين اهتموا بهذه القضية وكشفوا عن ضخامة المأزق البنائي المحتف بها: فرنسيس فوكوياما، فإنه ذكر أن تحديد حقوق الإنسان مبني بشكل أساسي على جواب سؤال ملح حاصله: لماذا يستحق الإنسان الحقوق؟

---

(١) نقلًا عن: الإلحاد يسمم كل شيء، هيثم طلعت (١٧).
(٢) أقوى براهين جون لينكس، جمع أحمد حسن (١٥٨).



وأشار إلى أن أتباع الأديان لن يجدوا صعوبة في الجواب على ذلك السؤال؛ لأنهم سيقولون: إن الموجب لذلك الخلق الخاص للإنسان، وثبوت الأصل الرباني له.

ثم قال: «فإذا لم يكن الإنسان مسيحيًّا أو لا يدين بدين آخر.. فهل هناك أساس علماني للاعتقاد بأن البشر مؤهلون لمكانة أخلاقية خاصة أو كرامة خاصة؟!»[1].

وذكر جواب كانط، وحاصله أن الناس يستحقون الكرامة لأنهم الجنس الوحيد الذي يملك حرية الإرادة، ولكنه نبه على أن هذا الجواب لا يقبل على الأصول المادية فقال: «سيكون الأمر صعبًا للغاية أن يقبل كل من يعتقد التفسير المادي للكون ـ ومن هؤلاء الغالبية العظمى من علماء المذهب الطبيعي ـ التفسير الكانطي للكرامة الإنسانية»[2]، وذكر أن السبب يرجع إلى أنهم لا يؤمنون بحرية الإرادة التي ذكرها كانط.

وبعدما ناقش حقوق الإنسان فوكوياما المكفولة في المنظومة الليبرالية، أشار إلى أنها ليست ثابتة وأنها قابلة للتغير والتبدل، وتحول كثير منها من حالة الرفض والشذوذ إلى حالة القبول والإقرار، وتحول بعضها من القبول والإقرار إلى التضاؤل والاختفاء، وأن معايير التمييز بين تلك التحولات غامضة، ثم قال: «وينبع غموض حديثنا الراهن عن طبيعة الحقوق عن أزمة فلسفية أعمق خاصة بإمكان توافر فهم عقلاني للإنسان، فالحقوق تنبثق مباشرة عن فهم لطبيعة الإنسان، فإن لم يتوافر اتفاق حول طبيعة الإنسان، أو اعتقاد بأن مثل هذا الفهم ليس مستحيلًا من حيث المبدأ، فإن أية محاولة لتعريف الحقوق أو لمنع خلق حقوق جديدة ربما يكون زائفا... إن كرامة الإنسان وتفوقه يؤهلانه لإخضاع الطبيعة؛ أي: للتأثير والتحكم في الطبيعة من أجل خدمة أغراضه بفضل العلوم الطبيعية الحديثة، غير أن العلوم الطبيعية الحديثة تشير إلى أنه ليس ثمة فارق جوهري بين الإنسان والطبيعة، وإلى أن الإنسان هو مجرد صورة أكثر تنظيما وعقلانية من الوحل اللزج، فإن لم يكن هناك أساس للقول بأن للإنسان كرامة

---

(١) نهاية الإنسان (٢١٧).

(٢) المرجع السابق (٢١٨)، وانظر كتابه الآخر: نهاية التاريخ (٢٥٨).



تجعله متفوقا على الطبيعة، فإن تبرير سيطرة الإنسان على الطبيعة يضحى غير ذي موضوع»[١].

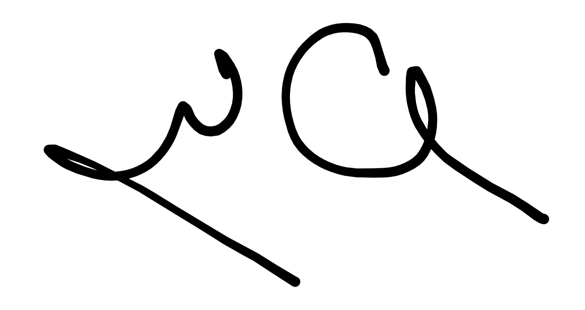
ثم ذكر مأزقًا آخر، وهو أن التفريق بين حقوق الإنسان وحقوق سائر الحيوانات لا يقوم على أساس صحيح، فيقول: «ويمكن أن نوسع من الرغبة الشديدة من المساواة التي تنكر وجود اختلافات بين الكائنات البشرية، بحيث تشمل إنكار وجود اختلافات هامة بين الإنسان والحيوانات العليا، فالحركة الداعية إلى احترام حقوق الحيوان، تذهب إلى أن القرد والفأر والسنور يمكنها أن تتعذب كما يتعذب الإنسان، في حين أن الدولفين يتمتع بدرجة عالية من الذكاء، فلماذا يكون قتل البشر غير مشروع في حين أن قتل مثل هذه الحيوانات ليس كذلك؟!

ولا يقف الحد عن هذا القدر، إذ كيف يمكن للمرء أن يميز بين الحيوانات الأعلى والحيوانات الأدنى؟ ومن بوسعه أن يحدد الكائنات التي تتعذب من كائنات الطبيعة؟ بل ولماذا تؤهل القدرة على الإحساس والتمتع بذكاء أعلى لأن يكون ذا قدر أرفع؟ لماذا يتمتع الإنسان بكرامة أوفر مما تتمتع به الكائنات الأخرى في الطبيعة، من أصغر الصخور شأنًا إلى أبعد النجوم؟ ولماذا لا تتمتع الحشرات والبكتيريا والطفيليات المعوية والفيروسات بحقوق مساوية لحقوق الإنسان؟!»[٢].

وهذا التقرير يثبت بوضوح أن النزعة الإنسانية لا يمكن أن تقيم حقوق الإنسان على الأصول المادية التي انطلقت منها، ولا يمكن أن تسوغ ذلك، ولا أن تدافع عن المشككين في حقوق الإنسان أو الداعين إلى إلغائها وإزالتها.

فهذه الأدلة وغيرها تدل بوضوح على أن النزعة الإنسانية لم تحقق للإنسان الشعارات التي دوت بها في الأجواء، ولا الآمال التي وعدت بها، وتثبت أنها بانقطاعها عن الله، والخضوع له أفسدت على الإنسان حقيقته وتميزه، وانتهكت أصوله ومبادئه التي يقيم عليها أخلاقه ومعارفه وحقوقه، وغيرت معالم حياته، وحولت علاقاته وآماله ورغباته إلى أطر مادية محضة، فتحول الإنسان إلى كونه

(١) نهاية التاريخ (٢٥٨ ـ ٢٥٩).
(٢) المرجع السابق (٢٦٠).



الانتهاء إلى موت الإنسان وضياعه:

عندما يغيب الإلٰه عن الحضور في الوعي الإنساني، ويصبح الإنسان سيد نفسه ومركز الكون ومقياس الخير والشر، ويعتقد أنه مجرد حيوان ليس له أصل إلهي متفرد، وأنه مجرد نتيجة ضربة عشوائية من ضربات المادة الصماء، ويتعامل مع بنيته الإنسانية على أنها مجرد آلة مكونة من أتراس متحركة تنتج عنها جميع المشاعر والأحاسيس، ويتنكر للأصول الكلية الثابتة التي تقوم عليها الأخلاق، في هذه الحالة ترحل الروح الإنسانية من الوجود؛ لأنها ذات مصدر إلهي سماوي، ويصبح الإنسان شيئًا ماديًّا محكومًا بالأحكام المادية.

فعندما غاب الإلٰه عن الوعي الغربي غابت الأحكام السماوية وقيم الوحي الإلٰهي الثابتة، وأضحت حياة الإنسان خالية من القيم الكلية عارية من المبادئ المطلقة المشرقة منسلخة من المعاني الثابتة، فأصبح الفكر الغربي مهيأ للتحول إلى ضياع الإنسان ذاته ونسيان هويته وحقيقته.

وما أعمق ما قاله المفكر المصري عبد الوهاب المسيري في التعليق على الحالة التي وصل إليها الفكر الغربي في شأن الإنسانية حيث يقول: «إذا نسي الإنسان الله وظن أنه غير موجود نسي نفسه وجوهره الإنساني المتجاوز ومركزيته في الطبيعة، وما يميزه كإنسان، ونسي أنه إنسان، إنسان غير طبيعي مستخلف من إلٰه عليّ قدير مجاوز للطبيعة والمادة»[١].

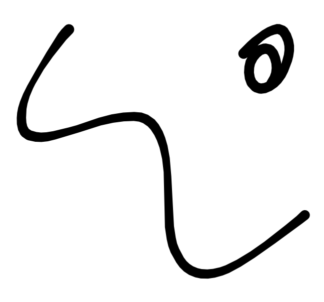
وبسبب النزعة الإنسانية الملحدة التي بلغت قوتها في القرن التاسع عشر انتشرت في الفكر الغربي تيارات منازعة للنزعة الإنسانية مناقضة لها في أصولها، وتحكم عليها بالفشل والانحطاط والأوهام[٢]، وانتشر في الأوساط الفكرية في القرن العشرين الإحساس بضياع الإنسانية وفقدان الأصول التي تقوم عليها، وتشكل تيار يتبنى الحكم على الإنسانية بالموت[٣].

---

(١) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية (١/ ٢٠٥).

(٢) انظر: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، عبد الرزاق الداوي (١٢٨).

(٣) انظر: المرجع السابق (٩، ١٥).



وأخذ ذلك التيار يردد بأصوات مرتفعة وفي نبرة من يعلن أنه اكتشف شيئًا جديدًا وهائلًا: إن ذلك الإنسان كما تصورناه إلى حد الآن، وكما أحببناه فينا وفي غيرنا، ودافعنا عنه وعن قضاياه، وجعلناه مركز الوجود وسيد الكون، لم يعد له وجود، وأنه قارب على الاختفاء، لقد أضحى تصورنا عنه كذات وعقل وإرادة وقدرة على الإبداع والاختراع متهافتا، ومعالم صورته المألوفة لدينا أخذت في التلاشي، وهويته في التشظي[1].

وفي بيان هذا التحول يقول إريك فروم: «كانت مشكلة القرن التاسع عشر الأساسية تتلخص فيما يلي: الله ميت، أما في القرن العشرين، فإنها تتلخص في العبارة التالية: الإنسان ميت»[2].

وتبنى الدعوة إلى موت الإنسان واضمحلاله عدد من أكبر المفكرين في القرن العشرين[3]، ويعد المفكر الفرنسي المشهور ميشيل فوكو ـ الذي وُصف «بأن أبحاثه ودراساته تشكل الحدث الفكري الأكثر بروزا وأهمية في هذا القرن»[4] ـ من أعتى من تعرض لنقد النزعة الإنسانية، وهو أول من نادى بمصطلح «موت الإنسان»[5]، وهو لا يقصد به أن الجنس البشري سيموت كله ويختفي من الوجود، وإنما يقصد به إعلان انتهاء النزعة الإنسانية، وتحطم كل القيم والمبادئ التي تقوم عليها حياة الإنسان، وانتهاء كل المعاني الكلية الثابتة التي تحكم مساراتها، وتهشم كل حقيقة مستقرة حول الوجود الإنساني.

وفي بيان فوكو لموقفه من الإنسان يقول: «إن الإنسان سوف يندثر، مثل وجه من الرمل مرسوم على حد البحر»[6]، ويكرر كثيرًا بأن إعلان الإنسان للإلحاد وإنكاره للقيم المطلقة يؤدي حتما إلى موت محقق للإنسان ذاته الذي قام بذلك الإعلان[7].

---

(١) انظر: المرجع السابق (١٥ ـ ١٦).

(٢) دواعي الإيمان في عصرنا، الأب جيوفاني مارتنتي (٢/ ٣٧٧).

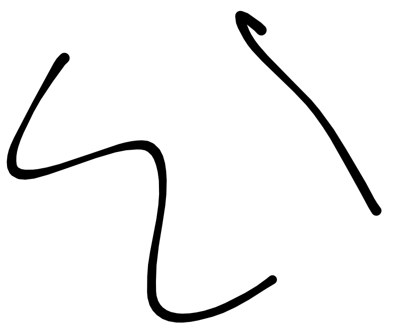
(٣) انظر: موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، عبد الرزاق الداوي، الكتاب كاملًا.

(٤) المرجع السابق (١٢٨)، وانظر في تأثير فوكو: في نقد ما بعد الحداثة: فوكو والجنون الغربي، محمد المزوغي (٩).

(٥) انظر: المرجع السابق (١٧٩).

(٦) الكلمات والأشياء، ميشيل فوكو (٣١٣).

(٧) انظر: المرجع السابق (٣١٢).



والنزعة المنادية بموت الإنسان من الوجود تعد النتيجة المنطقية للآراء والأفكار التي قامت عليها النزعة الإنسانية الملحدة، فإنكار الوجود الإلٰهي والحقائق المتجاوزة، التي ظهر أبلغ تعبير لها في مقالة نيتشه «موت الإلٰه»، تعني نسف جميع القيم والمثل العليا، وتهشيم كل المبادئ الثابتة، وإسقاط كل الأخرويات والماورائيات، والانتهاء إلى العدمية النقدية لكل معنى ثابت يمثل مرتكزا لبناء الحياة الإنسانية، وتتضمن إعلان انتهاء كل الأرضيات والقواعد التي تقوم عليها الأخلاق والمبادئ، وفساد كل نظام وقانون[١].

فالتصريح بموت الإلٰه إذن لا يعني انتصار الإنسان وتسيده على الوجود كما يريد نيتشه وأتباعه، وإنما يعني انتهاء كيانه وأفول وجوده وضياع حقيقته وتهشم بنيته الأخلاقية والقِيَمية.

وقد كرر ميشيل فوكو التأكيد على أن عمدته في التصريح بموت الإنسان هو قول نيتشه بموت الإلٰه! وأكد على أن قوله ذلك لا يعني إلا اختفاء الإنسان ذاته، وفي هذا يقول: «وصل نيتشه إلى النقطة التي عندها يمتلك الإنسان والله بعضهما، حيث يكون موت الأول مرادفًا لزوال الثاني، وحيث إن الوعد بالإنسان الأسمى يعني أولا وقبل كل شيء حتمية موت الإنسان الوشيك»[٢]، ويعيد تأكيده ذلك فيقول: «إن ما يبشر به فكر نيتشه أكثر من موت الله، أو بالأحرى في أثر هذا الموت، وبارتباط عميق معه هو نهاية قاتِله، إنه انفجار وجه الإنسان في الضحك، وعودة الأقنعة، إنه تبعثر مجرى الزمن العميق الذي كان يشعر أنه يحمله، والذي كان يحس بضغطه في كينونة الأشياء بالذات»[٣]، ويذكر أن ما يعلن عنه نيتشه «ليس غياب الله أو موته هو المؤكد، بقدر ما هو نهاية الإنسان»[٤].

وهو يعد نفسه تلميذًا لنيتشه، ويعترف بأنه هو الذي غير من مساره

---

(١) انظر في آثار عدمية نيتشه: ما الثورة الدينية، داربوششايغان (١٤٣ ـ ١٦٥)، ونيتشه وجذور ما بعد الحداثة، تحرير أحمد عطية (١٧٢ ـ ١٧٣)، ونيتشه، فؤاد زكريا (٣٩ ـ ٤٠)، وموت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، عبد الرزاق الداوي (٣٥، ٣٧).

(٢) الكلمات والأشياء (٢٨١).

(٣) المرجع السابق (٣١٢).

(٤) المرجع السابق (٣١٢).

الفكري، ويقول: «لست بكل بساطة إلا تلميذا لنيتشه، وما أحاول القيام به هو النظر بقدر الإمكان إلى بعض القضايا على ضوء نصوص نيتشه، لأرى ما يمكن عمله في هذا الميدان أو ذاك»[1].

وهكذا انتهت النزعة الإنسانية المستغنية عند كثير من المنظرين إلى قتل الإنسانية ذاتها والحكم عليها بالإعدام والاضمحلال، والبلوغ إلى ضياع الكيان الإنساني وتهتك بنيته وهيكله الذي تفرد به عن غيره، وانتهت الإنسانية إلى الدمار الأخلاقي والضياع القيمي والجفاف الروحي والتفتت المجتمعي والنفسي.

وقد ذكر روجيه جارودي في نقده المطول للحضارة الغربية أن العقل الغربي بتنكره للإله واعتقاده أن الإنسان مستقل بذاته سيطرت عليه روح النزعة الفردية، واستحكمت عليه من كل جنباته، وذكر أن العقل الغربي نتيجة لذلك اتخذ ديانة جديدة، هي ديانة النمو والتنمية، فقد بات النمو والتقدم هو الإلٰه الجديد الذي يسعى العقل الغربي من أجله.

وخلط العقل الغربي جراء ذلك بين الغايات والوسائل، فلم يعد الإنسان فيه غاية، وإنما تحول إلى وسيلة تتحكم فيها قوانين السوق، وأضحت الوسائل السوقية هي التي تتحكم فيه وتحدد العلاقات الاجتماعية له.

وأما على المستوى الفكري، فإن العقل الغربي سيطرت عليه ما يسميه جارودي: «ثقافة اليأس» التي اختزلت الإنسان في بعد واحد من أبعاده، ونظرت إليه كفرد منتج مستهلك فقط، وقد أدى هذا كله إلى غياب القيم وانفصال المبادئ عن الحياة، وتمهيد السبل لدعاة هذا الإلٰه الجديد «إلٰه النمو» إلى إشاعة العبثية والدعوة إلى العدمية، بعدما تبين لهم أن الإنسان أقصى الإلٰه ولم يبق إلا هو في الوجود[2].

وقد تتابعت نداءات عدد كبير من المفكرين تحذر من ضياع الإنسان في الحضارة الغربية، وتكشف عن الأخطار المترتبة على ذلك، وتدعو إلى البحث عن الإنسان وإرجاعه إلى الوجود من جديد، فقد تساءل أندريه مالرو عن مصير آمال القرن التاسع عشر وتطلعاته، وأجاب: «إنها أوروبا التي دمرت ولطختها

---

(١) موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، عبد الرزاق الداوي (١٧٨).

(٢) انظر في توضيح رؤية جارودي: روجيه جارودي والمشكلة الدينية، محسن الميلي (٢٢٨ ـ ٢٣٢).



الدماء، هي التي دمرت الإنسان ولطخته بالدماء، **وهي تظن أنها تخلقه**»[1].

ويكشف الدكتور ألكسيس كاريل الأزمة التي تمر بها الإنسانية في العصر الحديث ويحدد بعض أسبابها فيقول: «إن الحضارة المعاصرة تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا، فقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية؛ إذ إنها من خيالات الاكتشافات العلمية، وشهوات الناس، وأوهامهم ونظرياتهم، ورغباتهم، وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا...

إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيًّا وعقليًّا، إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف والتي ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها، ولكنها لا تدرك ذلك...

إن القلق والهموم التي يعاني منها سكان المدن العصرية تتولد عن نظمهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية...

إننا ضحايا تأخر علوم الحياة عن علوم الجماد»[2].

ويصرح شارل ديغول حين كان رئيسا لفرنسا بأن المجتمعات الغربية فقدت الإنسان قائلًا: «إن مجتمعاتنا الأوروبية فقدت شيئًا ثمينًا جدًّا تحت وطأة تقدمها الضخم، ألا وهو الإنسانية، وأعني بها القيم الروحية البشرية العليا، فقد قطعت شعورنا وتجمدت قيمنا الأخلاقية وانحلت»[3].

وأما محمد أسد فإنه كشف عن الحيرة والفراغ الروحي الذي كان يعيشه أبناء جيله في تلك المرحلة قائلًا: «لقد تميزت العقود الأولى من القرن العشرين بالفراغ الروحي، وأصبحت جميع القيم الأخلاقية والروحية التي ألفتها أوروبا عدة قرون غير ذات شكل مقرر محدود؛ وذلك بفعل الفظائع التي كانت قد حدثت ما بين عام ١٩١٤م و١٩١٨م، ولم يبدُ أن مجموعة جديدة من القيم ستفرض نفسها... وبسبب فقدان المقاييس الأخلاقية الموثوق بها، لم يستطع

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش (١٣٧).

(٢) الإنسان ذلك المجهول (٣٧).

(٣) الإسلام وأزمة الحضارة الإنسانية المعاصرة، عمر بهاء الدين الأميري (٢١).

أحد أن يقدم إلينا نحن الشباب أجوبة مرضية عن كثير من الأسئلة التي كانت تحيرنا، كان العلم يقول: «المعرفة هي كل شيء»، ونسي أن المعرفة دونما هدف أخلاقي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى الفوضى والغموض»[١].

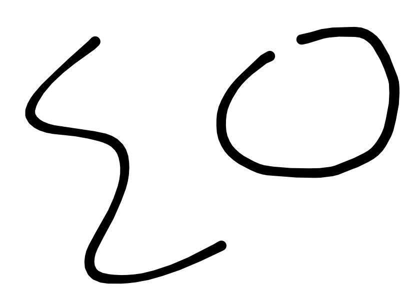
ويكتب زكي نجيب ـ وهو الخبير بالحالة الغربية ـ وصفًا دقيقًا لحالة ضياع الإنسان في الفكر الغربي فيقول: «لقد فشل الغرب نفسه ـ وهو صانع العلم الحديث ـ في أن يقيم لنفسه مثل هذا اللقاء بين الطرفين ـ القيم والتطور ـ، فكان له العلم، ولكنه فقد الإنسان، وليس هذا اتهاما من عندنا، بل يكفي أن نتتبع الأدب في أروبا وأمريكا اليوم ـ والأدب هو المرآة المصورة للإنسان وما يعتمل في نفسه ـ لنرى ما يحسه الناس هناك في دخائل صدورهم من ملل، وسأم، وضيق، وحيرة وضياع، إن الإنسان هناك يساير عصره العلمي في مقتضياته، لكنه لا يجد الفراغ ليخلو إلى نفسه، ويصغي إليها، كأنما كل فرد هناك هو فاوست، أغراه الشيطان بأن يبيع نفسه من أجل علم يحصله أو مال يكسبه أو قوة يستبد بها ويطغى... ولسنا نقول ذلك وفي أذهاننا ذرة من رغبة في التهوين من شأن العلم والمال والقوة، بل نقوله لنؤكد ضرورة أن يضاف إليها شيء آخر، هو القيم الخلقية والجمالية التي تجعل من الإنسـان إنسانا بالعمق، بعد أن جعل منه العلم والمال والقوة إنسانا بالطول والعرض»[٢].

وكتبت أدريين كوخ كتابًا جمعت فيه مقالات عدد من المفكرين والعلماء تحدثوا فيها عن تشخيص الأزمة التي تعصف بالعصر الحديث، فتقول في تقديمها لكتابها كاشفة عن حجم الأزمة التي يعيشها الإنسان البعيد عن الإيمان بالله: «هذا العصر الفظيع! من ذا الذي يتدبر مسيره وتاريخه ولا يحكم عليه بالفظاعة؟! ومن ذا الذي ينكر أن الثقة التي كانت تملأ نفوسنا عند مطلعه قد زالت من النفوس؟! ليس من شك في أن الأزمة التي نعانيها في هذا العصر الحاضر فريدة في تاريخ الإنسان، فهي أعمق وأوسع انتشارًا من أية أزمة أخرى عرفها تاريخ الإنسان؛ لأنها أزمة الوجود البشري ذاته... إن هذه المخاوف التي تهدد الفرد

---

(١) الطريق إلى الإسلام (٧٠). ولا بد من التنبيه إلى أن هذا الكلام وأمثاله ليس المراد منه أن كل فرد في المجتمعات الحديثة يعاني من تلك الأمراض، فإن هذا الحكم لا يقول به عاقل، وإنما المقصود انتشار تلك الأمراض وتشعب آثارها على قطاع واحد وكبير من الناس.

(٢) تجديد الفكر العربي (٢٧١).



تهدد أيضًا المجموعة البشرية كلها كما تهدد الفرد: إنها أزمة الفرد، وأزمة العلاقة بين الفرد والطبيعة، وبين الفرد وما يعمل، وبينه وبين غيره من الناس، وبين النظام الاجتماعي»[١].

إن أكبر مشكلة في الحياة المعاصرة في نظر رينيهدوبو هي: «شعور الإنسان أن الحياة قد فقدت معناها، فالمشاعر الدينية والتقاليد الاجتماعية القديمة تنخرها المعلومات العلمية وسخافة الأحداث العالمية، ونتيجة لذلك انتشر تعبير (مات الإله) بصورة واسعة في الأوساط اللاهوتية والعلمانية على السواء، وبما أن فكرة الإله كانت ترمز لوحدة الكون بمجموعه: الخلق والمخلوقات، لذا يبقى الإنسان الآن بدونها كسفينة بلا مرساة ولا قرار لها»[٢].

ويذكر أن البشرية الآن «تعايش أشكالا متنوعة من الغربة، فالضيق الاجتماعي والثقافي لا يؤثر فقط على المفكرين الواعين والعمال الصناعيين والطبقات الفقيرة، بل يؤثر أيضًا على كل الذين يشعرون بانسحاق فرديتهم»[٣]، ويؤكد على أن «الإنسان المعاصر قلق حتى ولو كان في زمن السلم، وفي جو البحبوحة الاقتصادية؛ لأن عالم التكنولوجيا الذي يشكل محيطه المباشر الذي فصله عن عالم الطبيعة الذي تطور الإنسان فيه أصلا، فصل في توفير حاجات الإنسان الأساسية التي لم تتغير ولم تتبدل، ومن نواح كثيرة يشبه إنسان العصر الحيوان البري، الذي يقضي حياته في حديقة الحيوانات، فالإنسان الآن كهذا الحيوان يتوفر له الغذاء الكافي والحماية الكافية من القسوة، ولكنه يخرج من المثيرات الطبيعية الأساسية للعديد من وظائفه الجسدية والفكرية، فإنسان اليوم ليس فقط غريبًا عن أخيه الإنسان، وعن الطبيعة، بل الأهم بكثير هو أنه غريب معزول عن أعماق ذاته»[٤].

ثم أشار إلى أن هناك بعضًا من المفكرين الذين يتبنون آراءً تفاؤلية عن مستقبل الإنسان، وأن الإنسان سيزداد قوة وسعة في العلم وتوغلا في معرفة الطبيعة، ولكنه أكد على أن تلك التنبؤات لا تنفع الإنسانية كثيرًا؛ لأن الإنسانية

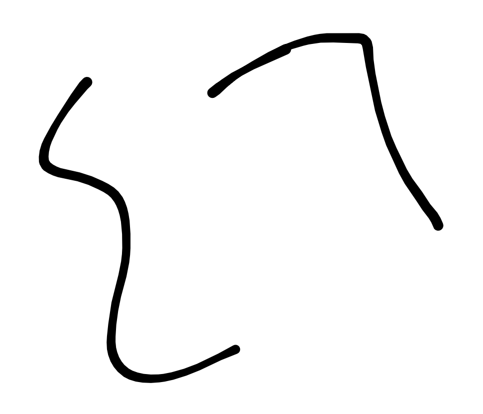
---

(١) آراء فلسفية في أزمة العصر (١٥).

(٢) إنسانية الإنسان (٤٧).

(٣) المرجع السابق (٤٨).

(٤) المرجع السابق (٤٩).



لا ينقصها الآن زيادة في التوسع المادي، وإنما ينقصها البحث عن المعاني الروحية والمبادئ القيمية[1]، وكرر التأكيد على أن أهم الواجبات التي يجب تركيز البحث عليها الآن هو البحث عن معنى لحياتنا الإنسانية[2].

وأما بوكانن فإنه أطلق صرخة مدوية في العالم الغربي الذي طغت عليه العلمانية والنزعة الإنسانية المستغنية عن الخالق، وذكر أن «مبدأ اللذّة الجديد غيرُ قادرٍ على إعطاء الناس سببًا كافيًا ليستمروا في الحياة، وثماره المبكِّرة تبدو سامة»[3]، ثم تحدث طويلًا عن آثار العلمانية والانفصال عن الاتصال بالخالق ومحاولة الاستغناء عن دينه ووحيه على المجتمعات الغربية، وأكد أن ذلك هو أحد أهم الأسباب التي ستؤدي بالإنسان في الغرب إلى الانتحار والموت[4].

ولو أخذنا نتتبع مقالات المفكرين والعلماء الذين صرحوا فيها بالأزمة التي تعشيها الإنسانية وأكدوا فيها ضرورة البحث عن المعاني الروحية وإرجاعها من جديد إلى الإنسان وتأسيس المعنى الذي تقوم عليه الحياة لطال بنا المقام جدًّا[5].

ولا بد من التأكيد على أن تلك المقالات التي فيها إطلاق الأحكام العامة على العصر الحديث أو على الإنسان المعاصر ليس المراد منها الحكم على كل فرد يعيش في عصرنا بأنه مصاب بتلك الأمراض والمشكلات، وإنما المراد به التوصيف الجملي، الذي يعني أن تلك الأمراض منتشرة في حياة الناس بشكل كبير جدًّا، وترتبت عليها آثار واسعة الوقوع في حياة الناس.

وكل هذه الدلائل تدل بوضوح على أن النزعة الإنسانية المستغنية عن الإلٰه لم تقدم للبشرية السعادة والرقي، ولم تحافظ بإنكارها للأديان ولوجود الخالق

---

(١) انظر: المرجع السابق (٥٢).

(٢) انظر: المرجع السابق (٢١٨).

(٣) موت الغرب (٢٧).

(٤) انظر: المرجع السابق (٣٤٠، ٣٤١، ٣٧٥).

(٥) انظر في ذلك كله: انتحار الغرب، ريتشارد كوك (١٠٠ ـ ١٠٢)، وآراء فلسفية في أزمة العصر، أدريين كوخ (١٨٢ ـ ١٨٣، ٢١٧)، وأزمة الإنسان الحديث، تشارلز فرنكل (٤٧ ـ ٤٩، ٢٠٢)، وأساطين الفكر، روجيه بول دروا (٢١٥)، وخدعة التكنولوجيا، جاك الول (٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٧٢)، والإسلام في عصر العلم، محمد فريد وجدي (٢٢٨ ـ ٢٤٣، ٢٨٣).

على الإنسانية كما تدَّعي، وهي في الحقيقة انتهت إلى القضاء على الإنسان، والحكم عليه بالموت والضياع في متاهات الحياة المتلاطمة.

وانتهاء الفكر الإنساني إلى العدمية يكشف بوضوح أن الإيمان بالخالق والأخذ بالدين الصحيح شرط أساسي في تحقيق المعنى الوجودي للإنسان في هذه الحياة، وأنه مقدمة ضرورية لنشر المعاني الإنسانية البناءة في الوجود، وأن حرمانه من ذلك يعني بالضرورة اختفاء معنى الوجود الحقيقي من حياة الإنسان، ويعني تحطم المعاني الإنسانية من حياة الشعوب.

المسار الثالث: الاكتمال الإنساني في الإسلام:

إن السعي إلى تحصيل الاكتمال الإنساني هم مشترك بين كل الأنظمة والمدارس التي تتعامل مع الواقع البشري، سواء كانت تلك الأنظمة دينية أو إلحادية، وكل نظام منها يقيم من التصورات والقوانين لتحقيق ذلك الاكتمال ما يتوافق مع رؤيته للوجود، وقد استعرضنا في المسار السابق الحالة التي انتهت إليها الرؤية الإلحادية المستغنية عن الله في بناء الاكتمال الإنساني، وكشفنا ما فيها من خلل وقصور وانتهاك للإنسانية ذاتها، وسنستعرض في هذا المسار التصور الذي أقامه الإسلام ـ باعتباره الممثل الحقيقي للدين الإلٰهي المنزل من السماء ـ عن الإنسانية ونكشف عن القوانين والمبادئ التي أسسها لتحقيق اكتمال الإنسانية وتدعيم معانيها الحقيقية في الوجود.

فقد اهتم الإسلام بالإنسان كثيرًا، وتحدث عنه حديثًا واسعًا، واستوعب جُلّ الأمور المهمة المتعلقة بالإنسان، فإننا «إذا نظرنا إلى المصدر الأول للإسلام، وهو القرآن كتاب الله، وتدبرنا آياته، وتأملنا موضوعاته واهتماماته، نستطيع أن نصفه بأنه كتاب الإنسان، فالقرآن كله إما حديث إلى الإنسان، أو حديث عن الإنسان»[1].

إن الدارس للأحكام والآداب والقوانين التي شرعها الإسلام وألزم بها المؤمنين يجد فيها معاني راقية تعتلي بالإنسان إلى أعلى درجات الإنسانية إذا هو التزم بها، وتزيد من تميزه عن جنس الحيوانات وشدة تفرده في الطبيعة، وتجعله

---

(١) الخصائص العامة للإسلام، يوسف القرضاوي (٦٦).



سيدا وكائنا ساميا لا يساميه أحد من المخلوقات، ولا يدانيه في منزلته غيره من الموجودات المخلوقة.

لا جرم أن الإسلام يتعامل مع الإنسان على أنه كائن مخلوق لإله عظيم جليل واسع القدرة والعلم والرحمة والقوة، وأن له وظيفة محددة في هذا الوجود، وأنه كيان متعدد الجوانب ومختلف الطبائع لا بد من الحفاظ عليها من كل جهة، فالإسلام يقيم «التصور الشامل، الذي يتصور الإنسان في حقيقته الشاملة المتكاملة: قبضة من طين الأرض، ونفخة من روح الله، ممتزجتين مترابطتين، يتكون منهما كيان واحد موحد الأجزاء، الجسم والروح حقيقة واحدة، الجانب المادي والجانب الروحي حقيقة واحدة، الجانب الاقتصادي والاجتماعي والجانب الأخلاقي والمعنوي حقيقة واحدة، كل نشاط الإنسان حقيقة، وحقيقة مترابطة ممتزجة، لا ينفصل النشاط الجنسي عن الأخلاق؛ لأن هذا وذاك جزءان غير منفصلين من كيان الإنسان.

والبحث عن الطعام، والإنتاج المادي، وتحسين أساليب الإنتاج، والتقدم العلمي، كلها لا تنفصل عن النشاط الروحي والقيم الأخلاقية والإنسانية؛ لأنها جميعا جوانب متعددة مترابطة من كيان واحد شامل متكامل، ومن ثمة لا تنفصل في حياة الإنسان عقيدته عن واقعه، وأخلاقه عن سلوكه، ونشاطه الجنسي عن نشاطه الروحي، ونشاطه المعنوي عن نشاطه المادي»[(١)].

ولأجل هذا كانت نتائج الإسلام على الحياة الإنسانية أكمل من غيره من الأديان ومن المنظومات الوضعية الأخرى، وأقوى تحقيقا لمعاني الإنسانية، وأعمق وصولًا إلى التميز الإنساني عن غيره من الموجودات، وأكثر تدعيما للتفرد الإنساني عما عداه من الحيوانات، والدلائل الدالة على ذلك من خلال المنظومة الإسلامية متعددة جدًّا، وسأخص بكلام مجمل البحث في ثلاثة أدلة أساسية:

الدليل الأول: الاكتمال الحياتي:

والمراد بذلك أن الإسلام جاء بما هو أكمل من غيره فيما يتعلق بحياة

---

(١) التطور والثبات في حياة البشر، محمد قطب (٢٩٨).

الإنسان في الأرض، وأكثر تشريفًا له على غيره من الموجودات، وذلك من جهات مختلفة: من جهة مصدر نشأته وتكوينه، ومن جهة منزلته وتكريمه، ومن جهة طبيعة حياته في الأرض، ومن جهة مصيره ومآله.

١ ـ أما من جهة مصدر نشأته وطبيعة تكوينه؛ فالإنسان في الإسلام مخلوق خاص، ذو كيان متميز، اختاره الله دون غيره من المخلوقات ليكون خليفة في الأرض، وهو المخلوق الوحيد الذي أخبرنا الله بأنه أعلن لملائكته عن خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والخلافة كلمة ضخمة ذات إيحاءات كبيرة، فهي تعني أن هذا الكائن الإنساني عظيم القدر جدًّا، ذو أهمية بارزة في الحياة، وتعني أنه مزود بخصائص الخلافة، وأولى هذه الخصائص الاستعداد للمعرفة الثاقبة المجددة التي لا تعرف الملل ولا الكلل، ومجهز بخصائص فطرية وعقلية تميزه عن غيره، وبمشاعر ومؤثرات تجعل استجابته وتفاعله مع الوجود مختلفا عما عداه.

«فهذا المخلوق تحتفل به السماوات والأرض، ويتولى الله سبحانه بنفسه إعلان مقدمه على الملأ الأعلى، والملائكة يفزعون للنبأ ويهتزون، ويراجعون ربهم، ويطلبون منه مزيدا من المعرفة عن حكمة خلق الإنسان واستخلافه، وهم الذين لا يراجعونه في أمر قط: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ثم يسجد الملائكة لمعجزة خلق الإنسان، زيادة في إبراز أهميته، وتوكيدا لتفرد هذه المعجزة بين المعجزات»[١].

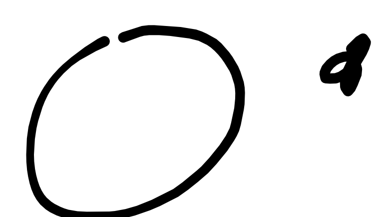
وكثيرًا ما يكرر الإسلام في نصوصه التأكيد في الحديث عن أصل الإنسان ونشأته على أنه مختلف عن جنس الموجودات والحيوانات، وأن الله اختاره وميزه، وأما التيارات المادية التي تبنت النزعة الإنسانية المستغنية فإنها على النقيض من ذلك، فهي تنطلق من أن الإنسان مجرد نتيجة ضربة عشوائية من ضربات المادة الصماء، وهي «تؤكد دائمًا ما هو مشترك بين الحيوان والإنسان، بينما الدين يؤكد على ما يفرق بينهما»[٢].

وبهذا التعامل الإسلامي يشعر الإنسان بأنه مخلوق أرقى من غيره وأكمل

---

(١) دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب (٣٠).

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب (٩٥).



مما عداه، فيسعى إلى تكميل هذا الرقي، ويتجافى عن كل ما ينزل به إلى مستويات من هو دونه من الحيوانات.

إن التعامل المادي مع الإنسان ـ وهو التعامل الذي تقوم عليه الإنسانية المستغنية ـ يحقر من شأن الإنسان ويقلل من قيمته، فإنهم حين رأوا عظمة الكون واتساعه وطول عمره وضخامة مكوناته، واكتشفوا أن الإنسان لا يساوي شيئًا من حيث الحجم المادي مع تلك العظمة، انتهوا إلى أنه مجرد حيوان صغير جاء نتيجة ضربة عشوائية عن طريق الصدفة، لا غاية له ولا قيمة.

ولكن هذه النظرة المادية قاصرة جدًّا في التعامل مع الإنسان ـ ذي الاختصاص الإلٰهي ـ؛ فإننا لو أغفلنا النظر إلى مزايا الإنسان الروحية والأخلاقية والمعنوية واقتصرنا على النظرة المادية فقط، «لرأينا أنه أسمى مخلوق في هذا الكون... دعونا نأخذ الإنسان ونتفحصه من الناحية الفنية ومن ناحية روعة الخلق، وليس من ناحية الكم والوزن كما يفعل البقالون وبائعو الحوائج المستعملة، ولنلق نظرة عجلى على خلية واحدة من خلاياه وعلى دماغه؛ لنرى ما هو المركوز فيه!

إن المعلومات الموجودة في شفرات كروموزومات خلية واحدة من خلاياه ٤٦ كروموزومًا، والتي تحتوي على جميع خواصه، لو حولت إلى موسوعة مؤلفة من ٤٦ مجلدًا، لزاد حجم كل مجلد فيها على عشرين ألف صفحة، وهذا أثر فني واحد فقط من بين الآثار الفنية التي لا تعد ولا تحصى، في خلية واحد من بين تريليونات الخلايا الموجودة في جسم الإنسان، فكيف بنا لو تفحصنا الأنسجة والعضلات والعظام والشرايين المؤلفة من العديد من الخلايا، والتي يحمل كل منها خواص مختلفة، والتي بمجموعها وبالنظام الدقيق المدهش الموجود بينها، تؤلف الإنسان، وتمكنه من الحياة والعيش؟!

ثم لنتناول رأس الإنسان، ونلقي نظرة على دماغه، الذي يعتبر أهم عضو فيه، والذي تميز به عن سائر الكائنات الحية... إذا فعلنا ذلك، فسوف نرى عجبًا! سوف نرى أن هذا الدماغ مجهز بقدرات وملكات يزيد عددها ليس على عدد المجرات في الكون، ولا على عدد النجوم فيه، بل يزيد بمليارات المرات على الذرات الموجودة في الكون، وبعدد يصعب مجرد التعبير عنه، إن إمكانية سعة الدماغ في تلقي الرسائل الواصلة إليه ونقلها هي بحدود (٢)٠٠٠، ٠٠٠، ٠٠٠، ١٠



رسالة، بينما يخمن عدد الذرات الموجودة في الكون بـ(١٠) ٧٩ ذرة، وهذا العدد أقل من (٢)٣٠٠٠.. . إذن هل لا تزالون تنظرون إلى الإنسان كبيضة سمكة في خضم المحيط الهادي؟!»[١].

وكل ذلك يؤكد الاختصاص الإلٰهي في خلق الإنسان، وأنه ذو مصدر رباني في خلقته وفي تركيب طبيعته، وتكشف بوضوح شديد أن الإنسان مخلوق مخصوص، أوجد لمهمة مخصوصة به دون غيره من المخلوقات، ولكن هناك من يريد أن يتنكر لهذه الحقيقة!!

٢ ـ **وأما من جهة منزلته وتكريمه**؛ فالإنسان في الإسلام أكرم مخلوق على الله في الأرض وأشرفه، وهو ذو منزلة عالية عظيمة في الوجود، يقول الله في الإعلان عن تكريم الإنسان على غيره: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ۝٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومظاهر التكريم الإلٰهي للإنسان كثيرة، فقد «كرمه بخلقه على تلك الهيئة، بهذه الفطرة التي تجمع بين الطين والنفخة، فتجمع بين الأرض والسماء في ذلك الكيان! وكرمه بالاستعدادات التي أودعها فطرته؛ والتي استأهل بها الخلافة في الأرض، يغير فيها ويبدل، وينتج فيها وينشئ، ويركب فيها ويحلل، ويبلغ بها الكمال المقدر للحياة، وكرمه بتسخير القوى الكونية له في الأرض وإمداده بعون القوى الكونية في الكواكب والأفلاك، وكرمه بذلك الاستقبال الفخم الذي استقبله به الوجود، وبذلك الموكب الذي تسجد فيه الملائكة، ويعلن فيه الخالق جل شأنه تكريم هذا الإنسان! وكرمه بإعلان هذا التكريم كله في كتابه المنزل من الملأ الأعلى الباقي في الأرض.. القرآن»[٢].

ويؤكد الإسلام على أن كل شيء في الوجود مهيأ لأجل الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٣﴾ [الجاثية: ١٣].

وهذا التصور على النقيض من تصور النزعة الإنسانية المستغنية التي لا تجعل الإنسان إلا مجرد جزء من أجزاء المادة، ولا يختلف عنها إلا في أن

---

(١) داروين ونظرية التطور، شمس الدين آق بلوت (١١١).

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٢٤١).

الصدفة زادت من تطوره على تطور الأجزاء الأخرى فحسب.

٣ ـ وأما من جهة طبيعة حياته في الأرض؛ فإن الإسلام قصد إلى جعْل حياة الإنسان في الأرض حياة أرقى من حياة الحيوانات الأخرى، فحياة الإنسان في التصور الإسلامي يجب أن تكون مختلفة في رقيها ورفعتها وطبيعتها وجمالها؛ ولأجل ذلك أكد الإسلام على وجوب الحفاظ على الضروريات التي لا يتحقق التميز الإنساني إلا بها، فشدد على ضرورة حفظ المال والعقل والنفس والعرض والدين، وحرم انتهاكها والتعدي عليها، وسعى إلى تهذيبها وترشيدها.

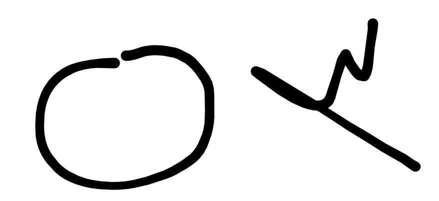
ومن أجل تحقيق التميز الإنساني شرع الإسلام منظومة واسعة ومتناسقة من الحقوق والواجبات، فقد شرع حق العدل، وحق التملك والتصرف، وحق التقاضي، وحق التعليم، وحق العمل، وحق العلاج، والحق في الحياة، وحق المسكن، والمأكل والمشرب والأمن، وحق التنقل، وشرع حقوقًا للأسرة، وحقوقًا للفرد، وحقوقًا للجماعة، وحقوقا للمرأة، وحقوقًا للرجل، وحقوقًا للأطفال.

ولم يقتصر على ذلك، بل أقام ضمانات حسية ومعنوية متعددة تزيد من الحفاظ على تلك الحقوق، وتفصيل جميع ما يتعلق بهذه المنظومة الحقوقية يخرج البحث عن مقصوده، وقد توسع كثير من الباحثين في شرحها وتفصيلها[١].

وفي هذه المنظومة نحن لا ندعي أن الإسلام تفرد بها، فقد شاركه فيها كثير من المنظومات الوضعية، ولكن التميز الإسلامي ينجلي في تحقيق التوازن فيما بينها والحرص على حفظ قدر كل جزء منها بما يستحقه من التقدير والاحترام.

٤ ـ وأما من حيث نهايته ومصيره؛ فالتصور الإسلام يرسم للإنسان نهاية مختلفة ومتميزة عن نهاية سائر الموجودات، ويحدد له مصيرا منفردا عن باقي الحيوانات، فبينما التصور المادي ـ الذي تقوم عليه الإنسانية المستغنية ـ يساوي بين الإنسان وبين غيره في النهاية والمصير ـ مع إقراره بأن الإنسان أعلى ذكاءً

(١) انظر: أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور (١٣٥ ـ ١٤٩)، والعدالة الاجتماعية، سيد قطب (٦٤ ـ ٧٠)، وحقوق الإنسان في الإسلام، راوية بنت أحمد الظهار (١٦٦).



وقدرة وحيوية ـ فإن الإسلام يأبى ذلك، ويجعل حياة الإنسان لا نهاية لها أبدًا، ويؤكد على أن الحياة في الأرض ما هي إلا مرحلة من مراحل الحياة، ومحطة من محطاتها فقط، ويقيم تصورًا واسع الأفق فسيح الأرجاء للحياة التي يمكن للإنسان أن يعيشها.

إن هذا التصور الذي يضفيه الإسلام على حياة الإنسان يزيد من آماله، ويسليه في أحزانه، ويرغبه في النشاط والعمل، ويبعث في قلبه الشعور بالمسؤولية، ويقوي فيه ضبط دوافعه ونزعاته، ويقوي من طمأنينة المظلوم والمقهور، ويعينه على تسلية نفسه ويواسيه[١].

الدليل الثاني: الاكتمال العقلي:

والمراد بذلك أن الإسلام يؤكد على القوانين والمبادئ التي تجعل العقل الإنساني أكثر اتساقًا واتساعًا، وأكمل تصورًا ورشدًا، وأعمق حيوية وفعالية، فبينما المذاهب المادية تجعل العقل الإنساني مجرد متلق، وتؤسس لرؤية «العقل المتلقي السلبي» التي تذهب إلى أن العقل جزء لا يتجزأ من المادة، خاضع لطبيعتها وقوانينها، وهو مجرد صفحة بيضاء تتراكم عليها المعطيات الحسية المادية، وتتجمع وتترابط لتصبح أفكارًا مركبة، فإن التصور الإسلامي يؤكد على أن العقل الإنساني مختلف عن الطبيعة، ويؤسس لرؤية «العقل التوليدي»، وهي الرؤية التي تؤمن بأن العقل قوة في الإنسان، مزودة بالمبادئ العامة التي يحكم العقل من خلالها على الواقع والحياة، وأن لديه القدرة على إدراك المبادئ العامة غير المادية، مثل ماهية الظواهر ومكنوناتها، وأن العقل ليس مجرد جزء من عالم المادة، وإنما هو مختلف عنها غاية الاختلاف، فهو منطوٍ على حزمة من المبادئ الكلية قبل اتصاله بالعالم والحس[٢].

والعقل التوليدي الذي يتميز به الإنسان المكرم من الإله يعلي من قدر ذلك الإنسان، ويفتح أمامه آفاقا أوسع مما يفتحه العقل المتلقي، فقد فتح الإسلام أمام العقل الإنساني مجالات أوسع وأرحب من المجالات الحسية الضيقة، والنتيجة المنهجية لذلك أن الإيمان يؤدي إلى اتساع العقل الإنساني وحيويته أكثر

---

(١) انظر: الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي (٧٤ ـ ١٤٥).

(٢) انظر في هذه الموازنة: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، عبد الوهاب المسيري (٣٥٢).

من الرؤية المادية، وسيأتي لهذه القضية مزيد بسط في أثناء البحث.

الدليل الثالث: الاكتمال الأخلاقي:

إن التصور الإسلامي يؤسس لقيم ومبادئ تساعد على تكميل الأخلاق، وتزيد من تحقيق معنى الإنسانية لدى الإنسان، وتقوي تميزه على الحيوان، وإثبات صدق هذه الدعوة عليه شواهد كثيرة في المنظومة الإسلامية، ولكن سنقتصر هنا على أمر واحد يمثل لب تلك الشواهد وجوهرها، وهو تأسيس قيمة الواجب والمسؤولية، فالأديان كلها ـ ومنها الإسلام ـ ترتكز بشكل أساسي على هذه القيمة، وتسعى إلى تعزيزها في الداخل الإنساني، بل إنه لا يقوم للدين بنيان إلا بهذه القيمة، وتعميقها من أقوى ما يصير الحياة الإنسانية مشبعة بالمعاني الإنسانية؛ لأن التزام الإنسان بالواجب يعني أنه يمتلك الحرية والاختيار، وأن لديه إرادة حرة يستطيع بها تحديد مساره، وأنه ليس مجرد استجابة لأتراس مادية جامدة صماء، «فعندما وهب الله الحرية للإنسان وأنذره بالعقاب الشديد، أكد ـ على أعلى مستوى ـ قيمة الإنسان كإنسان، بدون الدين وبدون فكرة الجهاد الروحي المتصل بالإنسان لا يوجد إيمان حقيقي بالإنسان باعتباره قيمة عليا، فبدون ذلك ينتفي الإيمان بإمكانية إنسانية الإنسان»[١].

إن قيمة الواجب تجعل من الحياة الإنسانية حياة قائمة على الاحترام والتقدير، سالمة من الأنانية والانفرادية القاتلة للعلاقات الاجتماعية الإنسانية، وتجعل الحياة منساقة نحو التعايش الإنساني الرفيع والترابط الروحي العميق.

واجتماع هذه المنظومة في التعامل مع الإنسان في دين الإسلام كان له أثر بليغ جدًّا على كثير من المفكرين والفلاسفة الخارجين عن دائرة الإسلام الذين درسوا الدين الإسلامي، وقد كان ذلك التعامل العالي مع البنية الإنسانية سببًا لاعتناق عدد منهم للإسلام، يقول ركس إنجرام ـ وهو مصور سينمائي هولندي اعتنق الإسلام ـ: «إني أعتقد أن الإسلام هو الدين الذي يدخل السلام والسكينة إلى النفس، ويلهم الإنسان العزاء وراحة البال والسلوى في هذه الحياة»[٢].

ويحكي ديبورا بوتر ـ وهو ممن أعلن دخوله في الإسلام ـ تجربته الروحية

---

(١) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش (١٠٣).

(٢) قالوا عن الإسلام، عماد الدين خليل (١٥٤).

فيقول: «لقد تعرضت في السنوات الأخيرة لفلسفات مختلفة، وخضت تجارب من الإيحاء الفردي، كانت تكشف لي عن جزء من الحقيقة، أما الآن فقد تجلى لي بوضوح أن هذه التجارب هي جزء لا يتجزأ من النظام الشامل للكون، وأنها بعزلتها تصبح قطعا متناثرة من اللغز الكبير، هذا اللغز المتكامل هو الإسلام، الذي أحدث ثورة في العالم بما قدمه له من نظام شامل للحياة الخلقية والاجتماعية ونظام الحكم والنظام الروحي للإنسان»[1].

ويكشف الدكتور هارولد سمث عن إعجابه بالتميز الإسلامي في التعامل مع الحياة الإنسانية، فيقول: «إن في التصور الإسلامي للإنسان اتجاهًا جمعيًّا، فإدراك الإنسان أنه ينتمي إلى كلٍ أكبر، وارتباطه بغيره ممن ينتمون إلى نفس الجماعة التي تؤمن إيمانه، يهيئان للحياة الفردية وضعًا اجتماعيًّا ليس له في الغالب وجود في الغرب الذي ينزع إلى الفردية، فالأخوة في الإسلام تهب قوة وأمنًا ومجالًا من الوعي المشترك، قد ينتج عنها ذلك النوع من الترابط الذي يتجاوز حدود الأوطان والأجناس، والذي يعمل الناس متلهفين في سبيل تحقيقه في سائر بلاد العالم»[2].

أما جميلة قرار ـ وهي فتاة نمساوية ولدت لأبوين ملحدين ـ فإنها توضح المعاني الإنسانية التي وجدتها في الإسلام قائلة: «شعرت أنني كمسلمة يمكنني أن أحيا حياة كاملة جديرة بالحياة، وأن الإسلام يجعل المرء يشبع حاجاته الروحية والمادية على حد سواء، في توازن يضمن تطور عقلية ثقافية مبدعة، ويحقق اجتهادًا دائبا لتحسين الوضع المادي للإنسان، على أساس من العلاج لا للإنسان وحده، بل لجميع الخلائق»[3].

ويسجل الدكتور الهولندي ميليا إعجابه بالتكامل الإسلامي في التعامل مع الإنسان فيقول: «لقد أعجبني اهتمام الإسلام بالمادة والروح باعتبارهما قيمتين أساسيتين، فالتطور العقلي والروحي للإنسان مرتبط في الإسلام وفي الفطرة على السواء ارتباطًا وثيقًا لا سبيل إلى فصله بحاجات الجسد»[4].

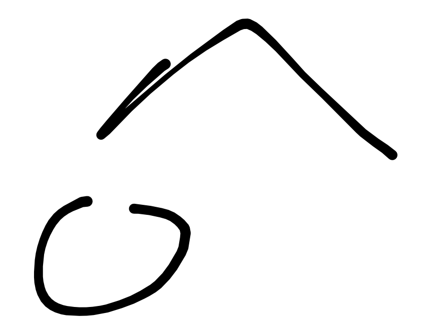
---

(١) المرجع السابق (١٦٣).

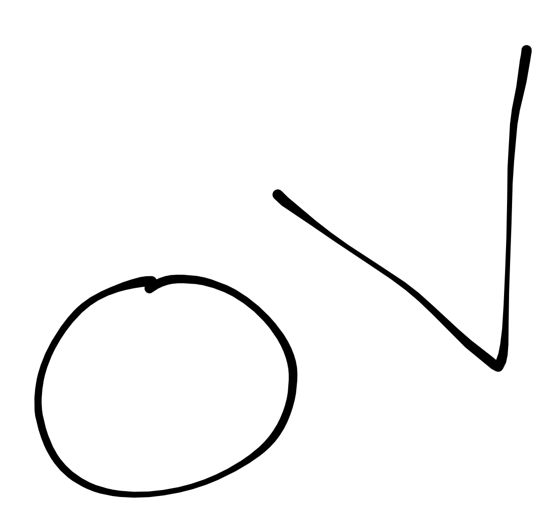
(٢) المرجع السابق (١٩٧).

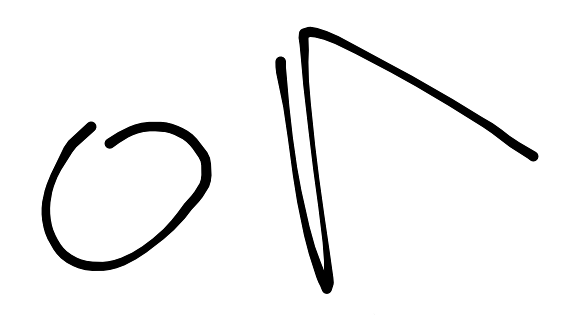
(٣) المرجع السابق (٢١٠).

(٤) المرجع السابق (٢٤٧).



ومن خلال هذه المسارات الثلاثة يتجلى بأن النزعة الإنسانية المستغنية لم تقم على أسس صحيحة، فضلًا عن أنها لم تحقق المعاني الإنسانية الحقة، وإنما تركزت نظرتها على جانب واحد من الجوانب المكونة للكيان الإنساني، وذلك بخلاف الرؤية التي أقامها الإسلام عن الإنسانية، فإنها تركزت على كل الجوانب المتعلقة بالكيان الإنساني؛ ولهذا اتصفت رؤيته بالاتساق والانضباط والشمول.





ـ انتهاك فرضية التطور للامتيازات الإنسانية:

فضلًا عن أن فرضية التطور مشحونة بالأغلاط المنطقية والاستدلالية، وعاجزة عن إثبات دعواها أن كل المظاهر البيولوجية ناتجة عن الانتخاب الطبيعي القائم على الصدفة وطول الأمد، فإنها مع ذلك لها آثار عميقة على حياة الإنسان وطبيعة وجوده في الحياة.

فحين تعاملت فرضية التطور مع الإنسان على أنه مجرد كائن حي، جاء نتيجة الصدفة العمياء الصماء التي لا إرادة لها ولا قصد ولا غاية، فإنها أنهت بذلك الامتياز الإنساني، وحقرت من منزلته، وأفسدت حقيقته وتصوراته، وأضرت بأخلاقه ومبادئه وقوانين حياته.

فمن أعمق المسالك في محاكمة فرضية التطور والنظر في الحكم عليها: الكشف عن آثارها المدمرة لحياة الإنسان، فإن كل نظرية تفسد حياة الإنسان وتدخل الخلل في مبادئه وأخلاقه وتبطل أصول معرفته وعلمه، فهي لا محالة نظرية باطلة لا يمكن قبولها.

وقد لاحظ عدد من الدارسين تضمن فرضية التطور لعدد من المعاني التي تؤدي إلى احتقار الإنسان، وإفساد طبيعته وأخلاقه ومعرفته ومبادئه، وهتك امتيازاته، ويقول عالم الأحافير جورج سيمبسون من جامعة هارفارد: «إن الإنسان نتيجة العمليات الطبيعية غير الهادفة، التي لم تكن تفكر يوما بإيجاده»[١]، ووفقًا لعالم الأحافير من جامعة هارفارد ستيفن جي جولد فإن علم الأحياء الداروينى: «قد نزع منا منزلة المخلوقات المثالية، المصنوعة على صورة الإله»؛ لذا ووفقا للنظرة الداروينية فلسنا سوى «فكرة طائرة بالصدفة على العالم»[٢].

---

(١) العلم وأصل الإنسان، آن جوجر وآخرون (١٧).

(٢) المرجع السابق، الصفحة نفسها.

ويعبر بيتر سينجر المختص في أخلاقيات البحث الحيوي ـ وهو مناصر لقتل الأجنبة المعوقين ـ عن وجهة نظر مماثلة، فيؤكد على أن الداروينية تزودنا بأسس النظرة الدونية للكائن البشري[١]، ويؤكد كارل جيبرسون ـ وهو أحد الداعمين لنظرية التطور ـ أن الوجود البشري شر منذ بدايته؛ لأن التطور تقوده الأنانية[٢].

ويقول ويليام ديمبسكي: «عندما يلاحظ علماء التطور بعض التشابهات بين الإنسان والحيوان فإنهم لا ينوون بذلك رفع مرتبة الحيوانات بحيث تجد بعض سماتها الآخذة في التطور أكمل في تعبير لها في البشر، لا، بل الأمر ليس كذلك، وإنما يقصدون الحط من قدر الإنسان عبر تجاهل الهبات البديعة، وإرجاع حقيقتها إلى عمليات التطور العمياء التي لا تفعل أكثر من تزيين ملكات موجودة مسبقا عند أسلافنا الحيوانية، هذا هو التفسير التطوري للغة والذكاء، بدلًا من التأكيد على تفرد الإنسان، فإنهم يؤكدون على شبهه بالحيوان»[٣].

ويمكن إثبات شواهد احتقار الداروينية للإنسان وانتهاك مبادئه وأخلاقه وقيمه بالأمور التالية[٤]:

● **الأمر الأول**: أن أسباب التغير التي تعتمد عليها فرضية التطور مجرد مصادفات وتفاعلات كيمياوية عشوائية، وطفرات عارضة صماء، لا قصد لها ولا غاية ولا هدف، ومثل هذا التصور له آثار عميقة في حياة الإنسان ونفسه، حيث يؤدي إلى أن يكون عيشه في الحياة خاليًا من الهدف، وتغلب عليه العشوائية والشهوانية والفوضوية، وأما بناءً على الإيمان بالخلق الإلٰهي فإنه لا شيء يقع في الكون إلا لهدف ولغاية محددة، ولا مكان في الكون للصدف، وكل شيء مخطط له من قبل حكيم عليم.

والعشوائية وعدم الهدف والغاية تؤثر أيضًا على معرفة الإنسان ويقينه بما يدركه بعقل؛ فإنه إذا كان ما ينتجه العقل مجرد أفكار ناتجة عن الصدفة ولا

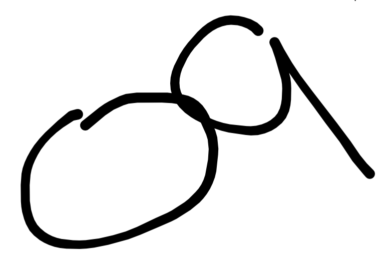
---

(١) انظر: المرجع السابق (١٨).

(٢) انظر: المرجع السابق (١٩).

(٣) تصميم الحياة (٦٣).

(٤) انظر: ذكرنا قدرًا من تلك الأمور في مبحث النزعة الإنسانية في الفصل الأول من الباب الثاني، وانظر مزيدًا من المراجع: التطور نظرية علمية أم إيديولوجيا، عرفان يلماز (٥٣ ـ ٦٢).



هدف لها ولا غاية وراءها، فما المسوغ الموضوعي للثقة في تلك الأفكار؟!

• **الأمر الثاني**: أنه وفقًا لفرضية التطور الطبيعي فالعالم والإنسان يعيشان في حالة صراع دائم مرير، وأنه لا بقاء للإنسان ما لم ينتصر في هذا الصراع الذي لا ينقطع، وتصور فرضية التطور أن كل من حول الإنسان ينافسه في عيشه، ويصارعه في حياته؛ لينتزع منه البقاء، ويفضي به إلى الفناء، وهذا التصور فيه قتل فظيع لكل المشاعر الروحية النبيلة، فلا مكان للعاطفة ولا الرحمة ولا الإيثار، فبدلًا من التحلي بصفتي التعاون والإيثار، يكون المنطق السائد التفكير في أنفسنا فقط، ويسود قانون الجشع والأنانية المقيتة؛ لأن كل واحد يسعى للانتصار في ذلك الصراع، إلى درجة أن بعض أتباع الداروينية الاجتماعية يرون أن تدخل الدولة لحماية الفقراء يؤدي إلى إضعاف المجتمع الإنساني، ويقلل من فرص تقدمه![1].

وأما مع الإيمان بالخلق الإلٰهي، فإن الأمر ليس كذلك، حيث إن الصراع من أجل البقاء موجود في الحياة، ولكنه ليس العامل الوحيد المؤثر في مسيرتها، ولا هو أيضًا العامل الأقوى والأكثر تأثيرًا، بل للعوامل التعاونية ـ كالحب والإيثار والتعاون والرحمة والعطف وغيرها ـ آثار عميقة في مجريات الحياة ومسيرتها.

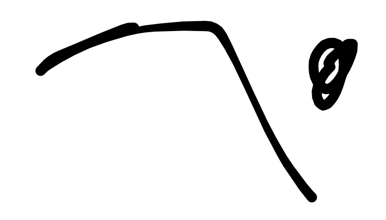
• **الأمر الثالث**: أن فرضية التطور تؤمن بإمكان التغير والتبدل في كل شيء، ولا تعترف بالثبات لأي مكون من مكونات الإنسان حتى المبادئ والقيم الكبرى، فالصدق قد يكون مذموما مع تطور الزمن، وكذلك الكذب قد يكون محمودًا، وكذلك الخيانة والخداع وأكل لحوم البشر، جميع هذه القبائح قد تكون محمودة مع تطور الزمن، ولا شك أن مثل هذا من أكبر ما يفتك بالحياة الإنسانية ويحولها إلى الحياة البهيمية المتوحشة.

وكذلك المبادئ المعرفية التي يؤمن بها الإنسان قد تتغير ولا يكون لها قيمة مع الزمن، فلا مسوغ للثقة بالعلوم التي تبنى عليها إذن.

وأما بالإيمان بالخلق الإلٰهي، فإنه يقوم على أن الله خلق الإنسان وفطره

---

(١) انظر في تعزيز نظرية التطور لمبدأ الصراع في الحياة الإنسانية: اختراق عقل، أحمد إبراهيم (٢٠٧)، والصراع في الفكر الغربي، عطية الويشي (١١٢ ـ ١١٩).



على استحسان المبادئ والقيم النبيلة كالصدق والوفاء والكرم وغيرها، وعلى استقباح المبادئ القبيحة كالكذب والخيانة والخداع.

• **الأمر الرابع**: وفقًا لفرضية التطور لا يتميز الإنسان عن سائر أنواع الحيوانات في أصل نشأته ولا في طبيعته، وإنما الخلاف ينحصر في أن الطبيعة الصماء العميان أضفت إليه صفات زائدة على غيره، انتهت به إلى أن يكون أرقى منها في تفكيره وعقله، فالاختلاف إذن اختلاف في الدرجة فقط[1]، وقد يتطور الأمر فيكون الإنسان أقل منزلة من بعض الحيوانات الأخرى، بل قد تكون بعض الحيوانات أفضل منه في مستقبل الأيام، وهذا ما صرح به جوليان هكسلي، حيث يقول: «من المسلم به أن الإنسان في الوقت الحاضر سيد المخلوقات، ولكن قد يحل محله القطة أو الفأرة»[2]، ويقول مؤكدًا النتائج المنطقية لفرضية التطور: «وظهر ما بدا أنه النتائج المنطقية لفروض داروين، فالإنسان ـ في رأي داروين ـ حيوان كغيره؛ ولذلك فإن آراءه في معنى الحياة الإنسانية، والمثل العليا لا تستحق بالنسبة لباقي الكائنات تقديرا أكثر من آراء الدودة الشريطية، أو بكتيريا الباشلس، والبقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطوري؛ ولذلك فكل الكائنات الحية الموجودة متساوية القيمة»[3].

لكن الإيمان بالخلق الإلٰهي يؤكد أن الإنسان خلق خلقا خاصا، وأن الله ميز الإنسان وأكرمه وأعلى من شأنه، ومنحه صفات كثيرة تفصله عن جميع أنواع الحيوانات الأخرى، ونفح فيه من الروح المتعالية، وجعله منفردًا عن غيره، ودعاه عن طريق أنبيائه إلى أن يحافظ على هذا التمايز في كل لحظة وحين.

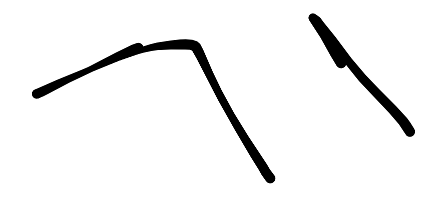
• **الأمر الخامس**: لم تكتف فرضية التطور بالادعاء أن الإنسان تطور وارتقى من أصل حيواني متدنٍ، وإنما تقرر أن الأعراق الإنسانية متفاوتة في التطور وفي الحصول على الارتقاء الإنساني الحيواني، وأن بعضها أرقى من بعض في الإنسانية، وأن الأعراق غير المتحضرة ستزول، يقول داروين: «عند أحد الفترات المستقبلية التي ليست بعيدة جدًّا عند قياسها بالقرون، فإن الأعراق

---

(١) انظر: نشأة الإنسان، داروين (١/ ٣٥٧).

(٢) الإنسان في العالم الحديث (٣) نقلًا عن: دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب (٣٥).

(٣) الإنسان في العالم الحديث (٣) نقلًا عن: دراسات في النفس الإنسانية، محمد قطب (٣٤).



المتمدنة ـ المتحضرة ـ من الإنسان سوف تُبِيد بشكل مؤكد تقريبًا وتحل محل الأعراق غير المتمدنة في جميع أرجاء العالم»[١]، ويرى بعض أتباع الداروينية الاجتماعية أن الجنس الأوروبي أرقى من بعض الأجناس الإنسانية الأخرى في الإنسانية[٢].

وقد قَدمَت هذه الرؤية العنصرية مفتاحًا سحريًّا للمجرمين والسفاحين، وفتحت لهم الأبواب مشرعة للتوسع في قتل الشعوب وإبادتهم، وأعطت لهم دعمًا علميًّا لجرائمهم، وقد قاموا بذلك بحجة أن تلك الشعوب المقهورة أعراق متدنية لا بد من إزالتها.

وفي تصوير ذلك يقول داونز في أثناء عرضه لمذهب داروين: «ومن جهة أخرى نشأت تطبيقات أخرى لنظرياته، لا نظن أن داروين كان يرضاها لو كان حيًّا، فمثلًا اتخذت الفاشية نظرية الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح مبررًا للقضاء على بعض الأجناس البشرية؛ لأنها تقضي على العناصر الضعيفة وتستبقي العناصر القوية»[٣].

وذكر عدد من الدارسين أن هتلر كان مؤمنًا بفرضية التطور، ويعتمد عليها في أن البقاء يجب أن يكون للأصلح فقط، وجعل هذه الفكرة مستندًا له في الإبادة الجماعية التي قام بها في حق البشر الأبرياء[٤].

ويؤكد إسحاق أزيموف تأثير فرضية التطور على تعميق النظرة العنصرية المقيتة على بعض المفكرين، فيقول: «بالطبع كان هناك أناس آمنوا بذلك، واعتنقوا هذا اللون من التفكير التطوري؛ ليقيموا حجة على أن الجماعات الإنسانية تتفاوت فيما بينها، وأن بعضها أفضل من بعض، وكان من الواضح أن أمثال هؤلاء الناس من المفكرين والدعاة كانوا لا يقصدون بالجماعة الأفضل إلا جماعتهم هم أو الأمة التي يعيشون فيها...

---

(١) نشأة الإنسان (١/ ٣٧٣).

(٢) انظر: تصميم الحياة، ويليام ديمبسكي وجوناثان ويلز (٤٥٧)، وخديعة التطور، هارون يحيى (٣٢).

(٣) كتب غيرت وجه العالم (٣٠٤).

(٤) انظر: وهم الشيطان، ديفيد بيرلنسكي (٥٨)، والوجه الحقيقي للإلحاد، رافي زكراياس (٧٠)، والإلحاد يسمم كل شيء، هيثم طلعت (١٥٣، ١٥٦، ١٦٣)، وخديعة التطور، هارون يحيى (٩ ـ ١٢)، وانظر مقابلة مع مؤلف كتاب: من داورين إلى هتلر، في فيلم المطرودون، الدقيقة (٧١)، وهو منشور في اليوتيوب.

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أخذ بعض الناس يبررون هذه الفكرة الشريرة القديمة ـ العنصرية ـ بقولهم: إن العلم الحديث يؤيدها ويقف إلى جانبها»[1].

وأما مع الإيمان بالخلق الإلٰهي، فإن البشر كلهم متساوون في الإنسانية، وجميعهم مشتركون في التكريم الإلٰهي لأصل خلقة الإنسان، ولا يكون التفاضل بينهم إلا بتقوى الله تعالى، وقد تجلى هذا المعنى في غاية الوضوح في قول النبي ﷺ: «**يا أيها الناس، ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى**»[2].

إن العاقل الحصيف إذا قارن بين الأمور التي تقتضيها فرضية التطور في حياة الإنسان وتؤثر على مستقبله وبين ما يقتضيه الإيمان بالخلق الإلٰهي للإنسان يدرك الفرق بينهما، ويستشعر حجم الكوارث التي يمكن أن تحل بالبشرية جراء فرضية التطور، وقد صرح الملحد المعاصر ريتشارد دوكنز بشيء من ذلك، فقال: «أنا دارويني بشغف عندما يتعلق الأمر بتفسير الحياة، وأنا ضد الداروينية بشغف عندما يتعلق الأمر بترتيب حياتنا»[3]، وأشار الفيلسوف المعاصر جارودي بأن الكرامة الإنسانية ضُربت في العصر الحديث ثلاث ضربات قاتلة، وذكر منها فرضية التطور والادعاء أن الإنسان نشأ نتيجة عمل الطبيعة العمياء، وليس نتيجة الخلق الإلٰهي الخاص[4].

وذكر وليام بروفين ـ وهو من أشد المؤمنين بنظرية التطور ـ أنه إذا ما كانت الداروينية صحيحة فإن هناك خمسة مقتضيات لا يمكن الهروب منها أبدًا: ١ ـ لا يوجد دليل في صالح الله، ٢ ـ لا توجد حياة بعد الموت، ٣ ـ لا يوجد معيار مطلق للصواب والخطأ، ٤ ـ لا يوجد معنى نهائي للحياة، ٥ ـ لا يملك الناس إرادة حرة في أفعالهم[5].

---

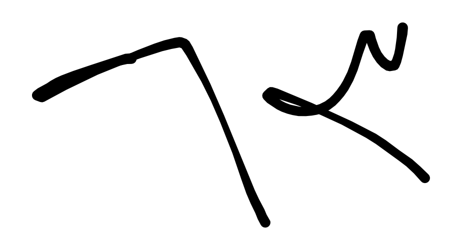
(١) منابع الحياة (٦٨)، ثم أخذ المؤلف يدافع عن نظرية التطور.

(٢) أخرجه أحمد في المسند، رقم (٢٣٤٨٩)، وهو حديث صحيح.

(٣) اللقاء الذي أجرته قناة الجزيرة الإنجليزية مع ريتشارد دوكنز، دقيقة (٤٢).

(٤) انظر: نظرات حول الإنسان (٢٩٤)، وانتحار الغرب، ريتشارد كوك (١٠٢).

(٥) انظر: القضية الإيمان، لي ستروبل (١١٥).



وهذا الإقرار من أفضل ما يكشف عن النهايات القبيحة الخطيرة التي يمكن أن تترتب على الإلحاد ونظرية التطور إذا شاع في الحياة الإنسانية، فمع الإلحاد والإيمان بنظرية التطور يكون الإنسان متنكرًا لأعظم حقيقة في الوجود، وهو الإيمان بالخالق للكون، ومع ذلك يفقد كل المعايير التي يمكن أن يميز بها بين الصواب والخطأ، ويفقد كل الدوافع التي تؤسس الوازع الداخلي لفعل الخير وترك الشر، ويجمع مع ذلك فقدان كل المعاني في الحياة، فتصبح حياة الإنسان بلا معنى، ثم يجمع مع ذلك كله الاعتقاد بأنه مجبور على أفعاله وجرائمه التي يقوم بها، وأنه غير مسؤول عنها؛ لأنه لا يملك إرادة حرة حيالها.

